قاسم توفيق

الشندغة

رواية

مكتبة لكل بيت

الرعاة

رواية

NOVEL

الشندغة

قاسم توفيق

الكتاب: **رواية الشندغة**

الكاتب: **قاسم توقيق**

منشورات

الرعاة للدراسات والنشر
رام الله - فلسطين
الطبعة الأولى 2007 م
جميع الحقوق محفوظه لدار النشر

التصميم والاشراف على الطباعة:

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All right reserved, No part of this book may be reproduced, or transmitted in any fromor anymeans, electronic or meachanical, including photocoping recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

لقد بدأ الكنعانيون حياتهم مسالمين يعيشون بذكاء كبير مع باقي الشعوب الموجودين في البلاد . غير انهم لما دحروا إلى الشمال على ايدي المجتاحين عمدوا إلى محاربة اقرانهم في سبيل العيش الذي اصبح ضرورة ملحة.

(اللآلئ)

الفصل الأول

١. هو

يلوذ بنفسه.

يغلق متراس العمر وراء الذكريات.

أحلام الأزمنة الطويلة التي تغيب ثم تصحو فجأة لتحرقه؛ وتدفع به إلى الهزيمة مرة أخرى.

الكون مرآة باهتة. وتألقه لا يأتي إلا مع شطحات التسلل بين زوايا البحر في المدينة المهاجرة الغريبة. أصوات الأمواج، ورفيف النوارس فوق القوارب الراسية لصق شاطئ الخور العالي، والألسنة الغريبة تلوك دواخلها كيفما أحبت فتخرجها لتمتزج بالبحر وبالطيور وبصوت السيارات ويافطة كبيرة تعلن أن ببسي كولا هي شراب جيل العصر.

يلوذ بالنسيان.

يهشم حالات التذكر التي تباغته كلما تلهت قدماه بالمسير على طول الكورنيش الطويل. يحاول أن يدندن أغنية لفيروز، يتلهى بتوزيع الراتب ومحاولة التوفير سداداً لفاتورة الغربة، يهيم بين الناس الذين يملأون الشوارع والبحر، عشرات الوجوه، عشرات الجنسيات، عشرات اللغات ... والعربي غريب.

– السلام عليكم رفيق.

(رفيق، أسلوب النداء داخل الخلايا الحزبية وقصائد الشعر، تقولها هنا لبائع السمك، وصاحب البقالة الإيراني، واللحام الهندي، والبحار العماني، والنادل الفلبيني، وأية مومس يسهل التقاطها من الطريق. كلهم رفاق، ولا أحد يحاسبك).

يحاول أن يفرّ إلى عمر يكون أهدأ، لا وقت فيه للجمال أو الطموح ... والعمر شارف الأربعين.

السائق الباكستاني يصرح عندما تعبر قدامه امرأة حاسرة الرأس :

– إن الفلسطينية واللبنانية تمارسان الدعارة بالعلن هنا.

ويستمع بصمت. **(كيف عرف ذلك وهو العاجز عن معرفة جنسية الراكب بجانبه ؟) .**

يستمع ، لا وقت لافتعال المعارك والدفاع عن مومس

أسقطها البؤس في حضن بحر النفط هذا. لا وقت للحديث عن الهوية ومبررات الدعارة ، والمهنة الأقدم في التاريخ، في كون الاستهلاك .. لا وقت عنده للبحث عن اللغة التي تنقل انفعالاته المتناقضة إلى مخلوق هائم بلحية وسخة ولفة رأس عريضة وسروال غامض اللون، ورائحة نفاذة خانقة. لا وقت إلا لهزة رأس، وهمسة خافِتة باردة :

– أنا فلسطيني .. رفيق .

يصمت السائق ، يحاول أن يصلح أمراً أفسده لكنه يفشل، تخونه اللغة ، يتلعثم . يطلب منه التوقف ، بصوت لا يكاد يسمع من دون أن يرفع عينيه عن الطريق :

– هنا؟

يهز رأسه، نعم.

– بلا ريالات أنت ضيف . يقول السائق المضطرب .

يبتسم، يلقمه الدراهم الثلاثة :

– لا بأس يا ابن العاهرة.

يتركه .. يكمل الطريق ماشياً إلى كورنيش المدينة.

تفاهة تتراكم خلف ظهره، في أفق ذاكرته المزدحمة، الحزينة.

– تراه فهم شتيمتي ؟؟

تساءل بصمت ...

لم يقدر السائق على سبر أغواره العميقة . لا لغته ولا لونه أعطياه خيط الاتصال الضئيل الذي يوصله بكل راكب معه. لم يتحسس رغبته بالسكينة والتوق المختلق إلى الاستسلام والركون إلى حضن الرغبة في توافه العمر. المال، الراحة، الاستقرار، والعمر الهادئ.

حاول اللجوء إلى زاوية العمر الجديدة، إلى انقلابة حادة أو انفلات مدهش من أسر عشرين عاماً من النضال .

ما انقضى عليه سوى نهار . وما مضت الأيام ... وها هو يرتد إلى كلماته العادية الرفاق، النضال والانفلات المدهش.

رعب يشده إلى هاوية غريبة، خوف جديد يصطك داخله، هل يقدر على المجابهة؟؟

هل توقه للراحة يمد جسده بالطاقة اللازمة للرحيل من عمر إلى عمر جديد؟ كل شيء جائز.

ما دام قد خطا خطوته الأولى .

الفيزا، تذكرة السفر، جواز السفر الذي ما ذاق معه طعم السفر من قبل، و"عمان" ليست سوى ضرب من الغيب لا يكون إلا عندما يدخل كشك الهاتف في ساعة متأخرة من الليل، يطلب رقماً ، يطلع له صوت جاره، يعرفه بنفسه، يسلم عليه يود أن يهرب من أسئلته المتكررة.

– أرجوك أن تنادي على أمي.

و ينتظر، يسمع جلبة وضجيجاً " لهما طعم آخر" طرق أبواب، صراخ أطفال، وصوت مذيع الراديو يقرر أن الجو غائم جزئي وأن هنالك فرصة لهطول المطر.

(الأطفال هنا لا يعرفون المطر ولا يعرفون الضجيج، غائبون في شققهم المتراكمة ببلادة مطلقة)

يأتي صوتها – عجوز دافئ صارخ – دعواتها تسبق سلامها، يسمع شهقتها وبكاءها.

– لا بأس يا أمي فأنا أدفع ثمن بكائك هذا .

يحاول أن يشتاق فلا يغزوه الشوق إلا لها .

– الأمور عظيمة هنا، الحياة رائعة، وأنا سعيد .

ينهي المكالمة، تجتاحه رغبة عاصفة بالبكاء .

*****

٢. دبي.

امرأة ساحلية تحتضن بحراً عظيماً، يلجها خوره الرائق مثل دجلة، يقطعها بين رحيل ورحيل عبر بلاد وأزمنة.

"دبي " مدينة بكر تتربع في كف الصحراء الآتية من أفق العالم، الشرق الممتد من أرض الشمس إلى ملكوت البحر، رحم مغمور بصخب الميلاد، يحمل جوفه وجوه الأرض قبل انتشارها، أحلام السموات في غاياتها اللامحدودة، نساء، رجالاً ، شيوخاً ، من كل لون .

(حزين أنا أيتها البلاد الحزينة.

هل كانت البداية فيك، أم قبلك بأزمنة بعيدة عندما قررت أنيّ قادم إليك فانتظريني ؟

المرة الأولى التي أسير بها إلى الرحيل مخلفا أعواماً من البيات الجاف، لا رحيل قبلك، ولا سفر ، ولا انطلاق خلف حدود البلاد التي تسعى لحدود البلاد. انتماء عاجز للمحدود، ورضوخ أرعن للفكرة، تسليم بصيرورة العمر الرتيبة .

الشوق كان لعيناً، حارقاً وغريباً. هذا الشوق إلى الغربة بعد عمر طويل من الاغتراب، ماذا تغير غير أن العمر تقدم قليلاً، ولم يعد في النفس جَلَد على المهادنة ؟

الفرار الجامح نحو القهر الراكد والمستنقع، من قهر يتحرك في كل خلايا عمرك ، الرحلة القصيرة تمتد... كانت طريقاً تعرفه ولا تعرف إلى أين تفضي. مطار ، صالات ممنوعة على الممنوعين من السفر، وختم جواز السفر الذي ما لوثه أبداً غير اسمي وميلادي وتاريخ الإصدار وبصمات المحققين.

شوق غريب كالانتحار، لا شيء يبقى. الطرقات الصغيرة، البيوت الدافئة الأصدقاء، الصديقات، جلسات الرفاق، قهوة آخر الشهر في مقهى الفاروقي(*)، مشاوير المطر تحت المطر، أغنيات فيروز بعد انتصاف الليل وعند الصباح ، الجارات الطيبات، الجارات المشاكسات والطيبات أيضاً، البقالة وفيها قوت العمر، مطعم الفول والفلافل، باص الجبل الكئيب وسيلة النقل اليتيمة وخيط الدخان الأسود المنطلق من عادمه اللاهث . أحاديث الأدب وأحاديث قلة الأدب، السهر، السكر ، لعب الزهر، ممارسة ألعاب الرجولة قبل الرجولة، مداعبة حبيبة برسالة مطرزة عطرة ، و" سارة".)

قرار اتخذ.

أعدّ كل شيء ، الملابس، الحقيبة، فرشاة الأسنان، دفتر الخواطر، فللسفر طقوسه كما يعتقد. كل شيء انقضى بسرعة،

(*) مقهى في عمان

خائفاً من أن يعدل عن الفكرة، يخشى على جرأته أن تتلاشى بعدما عمّرها داخله لبنة لبنة، واثقاً أن عمره هو هواء هذه المدينة الذي يتحرك الآن .

الدهشة تملأ وجوه المحيطين به وهو يداري دهشته، لا وقت عنده ليرى انسلاخه الحاد واندفاعه العجيب.

– لم تخف القمع . وتخشى الحرية ؟

همس أخوه الواقف في ظل ضوء المطبخ المشتعل، أكمل وعيناه فيهما احمرار السكر:–

– عجيب أنت !

سلم عليه، عانقه، عبقت في أنفه رائحة خمر نفاذة ، زكمته.

دس بيده ورقة، أشار عليه أن لا يفتحها الآن، تجاهل إشارته، فضها أبصر أول كلماتها .

أيها الرفيق...

لم يتابع النظر إليه، كانت ملامح وجهه تقول :

يحرقني الشوق إلى الرحيل، إلى اتخاذ قراري وحدي ولو لمرة واحدة في العمر .

******

ابتدأ الضجيج، تحركت الطائرة، عم الصخب كونه الصغير الهادئ حتى اللحظة . امتزجت في مسامعه إجابات قاسية، انهمرت مرة واحدة تلقي عن كاهلها أسئلة كثيرة عاشت فيه

زماناً طويلاً مختلطة بصوت المضيفة الناعم :

– الرجاء ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين.

تقوى الحركة ويشتد الصخب.

الشارع من النافذة يسرع مبتعداً إلى الخلف، آخر ذرات التراب في الوطن ، ثم يأتي الارتقاء.

و تشد الرحلة الخطا نحو الغربة.

******

٣. أيها الرفيق.

كتب:

كم عمراً من الهزائم سنحيا بعد ؟ فراراً جديداً ؟ محاولة التغيير التي ما أفلحت أبداً في تغيير المحور الأساس الذي سيغير العالم؟

كتب :

أتحسس صراعك وأتحسس صمودك ، لم أكن إلا لأحسدك، أهتف داخلي كيف تحمل كل هذا الكم من الانتهازيين والنفعيين والمتساقطين المقنعين والمعلنين ؟

كم كرهت كلماتك عن الظرف الموضوعي، وكنت أتساءل لماذا لا يكون هذا الظرف إلا ليبرز انكساراتنا فقط، ولم يأت مرة ليحقق تميزاً إيجابياً لحركة التاريخ التي تؤمن بها.

لا أريد أن أحطم فيك شيئاً ، لكني أود إعطاءك لحظة أخرى من العزيمة على الاستمرار.

سأعتبر سني غيابك منذ الساعة سني سجن جديد، لا بأس، اعتدنا ذلك، اعتدنا كل شيء أتذكر ؟ لم يبق سوى منفانا الاختياري أيها الرفيق.

إن كلماتي هذه لم تخلق مجردة . ولكم تنازعتني

واصطخبت داخلي، اليوم اشتدت وطأتها. وأنا الذي كنت أحسب أن هناك مسافة إلى سفرك حتى فوجئت بأنه لم يتبق المزيد من الساعات.

استعنت بما تعلمته منك .

استعنت بلقاء مع " سارة" وحديثها عنك.

استعنت بزجاجة خمر.

وبدأت أكتب

قل : لماذا نحيا هذا الكم من الأحلام العظيمة؟

ومن الهزائم العظيمة؟

لماذا لم نكن وسطاً قَطّ ؟

لعنة سيزيف صعود وانحدار لا ينتهي . لكن يا صديق، هذا في الأسطورة وليس في العمر.

قالت لي " سارة" : إنها لن تراك لتودعك، ستراك كما تفعل في كل لقاء بينكما فلطالما التقيتما وكأنكما تلتقيان للمرة الأولى، وكنتما تفترقان وكأنكما لن تلتقيا بعدها. هذا ما قالته. وأنا اعرف أنها تسرق ذلك من فيروز .

سألتها عن الأحلام ، قالت: حسبي من العمر ما عشته مع أخيك.

ماذا أقول أنا ، ولقد عرفتك أكثر مما عرفتك ؟

إني أفتقر للموضوعية وأنا فرح بذلك، باندفاعي، بقدرتي

للمرة الأولى على أن أتكلم.

امتزج اليوم بأشياء عمان، شوارعها، ناسها، أزقتها العجيبة المتخفية في شوارعها الخلفية، وأحس أن لك علينا ديناً ، دين العلاقة الطويلة والعشرة الحلوة، الانسياب في دواخلنا، كما كنت تقول، كيف لمدينتك التي تعيش فيك كما تعيش أنت فيها، أن تصمت على رحيلك؟؟ أم هو زمان الخيانات الكبرى؟

لا بأس ارحل وجرب من جديد. مازلت أراك تذهب للسجن كما كنت تذهب دائماً.

سلام يا رفيق ، حتى نلتقي .

*****

٤. الطريق إلى البحر.

كان نهار جديد يأتي بلجة، والطائرة تهبط فوق مدينة غارقة بالأضواء، قدّم ساعته ساعتين انزلقتا من يدي عمره كأنهما السراب . ما إن ضغط إبهامه مفتاح الساعة حتى هاجت فيه الفكرة.

أتكون هذه أول الخسائر؟؟

لحظات العمر والانحدار إلى منزلق كان يحسب أنه مازال بعيداً، ذاك جزءٌ من اليوم فرّ كأنه انخماد الزمان.

كان ينتظر لحظة الأمر الموجهة من المضيفة، والطائرة ما تزال تتحرك ببطء بين اتجاه وآخر، ومع كل دورة يود أن يخلع حزام الأمان ويقف . لكنه يجد أنه ما يزال هناك مسير جديد ودوران في الساحة الفسيحة البادية له من النافذة.

حتى جاء الأمر فوقف، لا شيء يحمله بيده، الحقائب في العنابر، وجواز السفر في جيب السترة ما يزال.

وصل باب الخروج .

ود لو وقف قليلاً يستنشق أول نسمة هواء في البلد الجديد، لكن سيل الناس دفعه لمواصلة المسير، هبت على أنفاسه نسمات

هواء مشبعة بالرطوبة، بدت له ثقيلة بالكاد يمكن استنشاقها.

شد الخطا ، اندس بين ركاب حافلة مفلطحة.. الوجوه نفسها التي جاءت معه من البلاد إلى هنا باستثناء السائق الأسيوي الأسود الضخم.

انتظر حتى اكتظت الحافلة، وضع الغيار الأول، فتحركت الحافلة، اهتز والركاب. لا شيء جديداً ، الساحة العظيمة، طائرات، باصات مفلطحة، وعمال يدورون بملابسهم الفسفورية ويقومون بعمل ما.

لاحت أضواء مدخل كبير، جاورته الحافلة، ابطأت، ثم توقفت . فُتحت الأبواب، خرج الركاب.. خرج فلفحته ثانية كتلة الهواء الرطبة ، أحس الآن ضيقاً في التنفس. تذكر ما سمعه عن هذا الجو، أحس جبينه يندى خلال برهة استغرقته للعبور من الحافلة إلى حيث صفعته برودة منعشة استسلم لها. حرك إصبعه حول ياقة عنقه وكأنه يبحث عن مدخل إلى بدنه تتسلل منه نفحات البرودة هذه.

من جديد أخذ دوراً في طابور جديد... نوافذ، أدوار، يافطات مكتوب عليها: أوروبيون، خليجيون، عرب، جنسيات أخرى.

(يا رفاق...

يجب أن يكون هنالك استمرار لضرورة القومية، نحن

دوناً عن الكون أنبل مثال لمفهوم القومية، أنقى الأمثلة لأنّا نفتقد للاستثناء.

إن المعنى القومي الذي نريده يتعدى الفهم اللغوي المسطح، التنظيري الإعلامي ، بل الوجود الحقيقي الذي يكون داخل الأشياء الحية ، كالدم في البدن، والتمثيل الضوئي للنبات.

لن يقدر أحد على إلغاء الوجود الحيّ المستمر بقرار أو فكرة ، وعليه لن تلغى حالات الاندماج القومي التي تؤطرنا جميعاً)

تلهّى بمراقبة المكان، والناس، والوجوه الجديدة للمخبرين في زيهم الوطني الأبيض.

نبهه أحدهم أن يعد جواز السفر والفيزا، تذكر جواز عبوره من البوابة القادمة، الفيزا، لو حدث وفقدها سيرجع من حيث جاء.

ببساطه سيبقي جالساً قرب حقائبه حتى تعود الطائرة من جديد ثم يصعد إليها ثانية، لن يفتقد المراقبة للعالم الجديد الذي يتحرك أمامه طوال الليل حتى يعلن عن الطائرة المتجهة إلى " عمان"، سيأتيه أحدهم بكوب شاي ساخن، وسيتبرع آخر بأن يبلغ

رسالة للذين ينتظرونه في الخارج. سيصاب بالدوار من العوالم التي تتقافز متغيرة بسرعة أمامه، الوجوه، اللغات ، المخبرين.

الفيزا ، داخل جواز السفر وكل شيء فيها صحيح، الاسم، الجنس، الجنسية، شد عليها بيده وعاد يراقب الواقفين في الطابور والصمت ساكن فوقهم بلا حراك .

خُتم جواز السفر ...

سحبت الفيزا ...

خرج.

استدل إلى حقائبه.

دفعها بالعربة أمامه ...

بحث عن شرطي يفتش له حقائبه، لم يجد.

توجه إلى أحدهم ،كان الشرطي يقف بحياد ،سأله :

– التفتيش؟

ضحك الشرطي:–

– حمداً لله على سلامتك ، تفضل.

و أشار نحو بوابة عريضة جديدة ما إن دلفها حتى هبت في وجهه نفحات الهواء المشبعة بالرطوبة وضجيج السيارات.

– لا تفتيش إذن ، ما أسهل الأحلام!

وقف خلف العربة، راقب الوجوه، الحركة ، النساء، الأطفال،

والنوم يتحرك أمامه معهم في مشيتهم خلف أهاليهم.

تحقق ، أبصر اسمه مكتوباً على لوح منتصب بيد رجل صغير، أصلع الرأس، أنيق بحياء.

رفع يده، هرع الرجل نحوه:-

– مستر ناصر الحاج؟

– هو أنا ،

- welcome sir.

صافحه، سأله عن الحقائب. حملها بخفة، ألقاها في المقعد الخلفيّ، فتح له الباب، أشار عليه أن يتفضل بالدخول.

الهواء ما يزال مشبعاً برطوبة ثقيلة. للمرة الأولى يتكلم بعد ساعات من الصمت سأل وهو يندس في السيارة قرب مرافقه:

– كيف تتنفسون؟!

فزّ المرافق متسائلاً كأنه يقول : عذراً لم أفهمك .

تمتم:

- Nothing.

انطلقت السيارة، دس الرجل شريط الكاسيت بنقرة من إصبعه فانفجرت أغنية هندية اهتز لها ونظر إلى ضيفة مبتسماً:

- It is a beautiful country.

كان النهار يهبط على شوارع مكتظة بالحدائق الغارقة بألوان الزهور المتفتحة بشهية أمام لحظات الضوء الأولى عبر مدى غير محدود.

ودّ أن يسأل عن هذه الأعجوبة ، اخضرار مذهل وسط صحراء الكون الكبرى. صمت لعدم رغبته في الحوار، كان قد قرر الصمت .

(قال رب أنّى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا * قال ربّ اجعل لي آيةً قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا) .(*)

الصمت آية الأنبياء.

لا وقت لاختراع العلاقات الجديدة، مازالت الصور تتحرك حوله كالحلم . لم يتحين لحظة للاندهاش والمعرفة، ولم يحاول تحريك مراقبته المحايدة ، الطائرة، الحقيبة التي دخلت المدينة من دون أن تفتح، الطرقات المملوءة بالزهور في صحراء على مد الخريطة، السائق الهنديّ المحتفل بهذا الكون ، الأغنية الهندية الكئيبة بصخبها.

لا شيء يتحرك فيه غير انخطاف الوقت السريع أول النهار ، الشمس الفازة من عمق الصحراء بألق وحرارة .

(*) سورة مريم

همس:

– خذني إلى البحر .

– تلفت السائق وكأنه سمع شيئا أدهشه.

– كرر بصوته الخافت : البحر .

- ?The sea

– رد the sea.

هتف ومازال الفرح ينفجر في كلماته

– انظر حولك ، البحر في كل مكان .

أعاد حاسما :

– البحر.

كان متيقنا أنه قادر على إعطاء الأمر ، فالشركات ترسل من يحسنون تلقي الأوامر.

سأله: ألست متعباً؟

هز رأسه نافياً .

مد سبابته أمامه على طول يده الممتدة وهتف:

– إلى البحر.

كانت السيارة تنهب الطريق الفسيح الممتد إلى أفق تغمره الخضرة عندما أخذ يعود شيئا فشيئا إلى نفسه.

حرك في ذاته الهدوء، وبحث فيها عن نقطة ينطلق منها إلى هدأتها، تراكمت فيه حالات أنيسة، وطفق يفكر .

عليه تنظيم أوراق رحلته في الفندق أولا.

الفندق عالم معيشة جديد غريب، التوجه إلى المكتب، الوجوه الغريبة التي سيلاقيها ، المكاتب المختلفة، العمل الجديد، النساء إن وجدن، ثم وصيته لنفسه أن الصمت رفيق هذا الاغتراب .

صار عاجزا عن لملمة شتاته، قرر أن البحر ملاذه الأول ، صديقه الأخير لن يتكلم إلا معه ، ولن يبوح إلا له ، ولن يبكي إلا على عتبات صدره .

– هل سيفهمني البحر؟

لاحت بنايات المدينة الشاهقة من بعيد كأنها تسمو إلى السحاب ، وأخذ الشارع يتشتت في جهات كثيرة وراء يافطات ضخمة تسمى الأماكن .

ظل السائق منفردا بقيادته وهو المتيقن أن القادمين للمرة الأولى يتوقون للحظه استرخاء تخصهم ، فلم تعنه وحدته التي اعتادها ، وصمت ضيفه الذي خنق الصخب.

اندفعت السيارة من قدام إشارة ضوئية ينبض فيها الضوء الأصفر، كانت منطلقة وحدها والنهار لم يغمر المدينة بالكامل بعد.

استدارت باتجاه سهم يشير إلى الكورنيش، انعطفت بعدها فبدا البحر .

البحر ابن الصبح الغارق في الأزرق ، ولدته الأرض في ليلة حب مترعة . الضوء يغسل جبينه الساكن كالقمر، صوته كركرة ناعمة .

أراد أن يطلب من السائق التوقف ، لكنه لم يفعل عندما رأى أن البحر امتداد لا ينتهي . غالب الشوق وانتظر حتى مالت السيارة بسرعة عند منعطف كان ينفصل عن البر بأعجوبة ويخترق الماء مثل حربة .

طريق طويل، السيارة فيه صغيرة محاصرة بالأزرق.

تنبهت فيه لحظة عشق طفولية ، غمره فرح ناعم داعب وجدانه المتلبد، استرخى ، التقط نفساً عميقاً جاءه من فتحات مكيف السيارة بارداً.

عندها صارت السيارة تبطئ والسائق يركنها جوار الرصيف المخطط بالأبيض ، رويداً رويداً .

تريث ، دس يده تدفع مقبض الباب . خرج .

ما أن رفع رأسه حتى دهمته رائحة البحر ، تلك الرائحة التي يشتمها كلما فتح كتاباً عن الغربة، كانت صاخبة مشتهاة كما يتمنى، تعبق في الأنف وفي البدن . تلامسه بحنو ، تجتازه فتلامس كل خلاياه.

يصحو فيه الانطلاق ، يغدو عارياً .. طفلاً.

مشى، داس التراب الناعم . كانت تلمع مع حالات الشمس الأولى صدفات سابحة في بحر الرمل تحت وقع خطواته الوئيدة الرائقة.

صار قرب الماء، كانت موجات المد تصعد هادئة من البحر تلامس التراب فتغمره بالبلل، لا تلبث تنسحب مثلما جاءت.

داس عليها أحس الأرض تخفت تحت نعليه بحنو ورضا . وقف ، تأمل هذا الامتداد الإلهي. هبط، سجد على ركبتيه. انتظر، عادت الموجه الهادئة ثانية تأتي نحوه بثقة وتودد، لامست حذاءه ، تجاوزته وحاصرته. هي لحظة ثم رجعت نحو بطنها البحر .

انتظر ، امتدت إليه ثانية. عندما لامسته مد يده بقوة ، قبض حفنة الماء ، انسابت من بين أصابعه بسرعة بعدما تركت عليها البلل. امرأة، طفلة ، خجلى فرت مسرعة. قرّب بقاياها بقبضته من فمه، ثم همس شيئاً يختلط فيه الحلم بالتمني .

وقف، كان السائق الهنديّ ينظر نحوه بابتسامة متعجبة، كسر صمته وقال :

– إنه يتكلم .

استفسر السائق بالإنجليزية:

- I don’t understand.

البحر يتكلم ، إنه يتكلم العربية.

كان البحر يصهل خلف ظهره وهو يرتد إلى السيارة مخلفاً وراءه دهشة السائق وآثار الملح التي صارت ترتسم بين أصابعه خرائط مبهمة الملامح.

*****

٥. حب.

هتفت عندما رأته أمامها :

– تأخرت ،هل تحسبني حجراً ؟ أنا متعبة.

ارتعش جفنها ، ودت أن تلقي جسدها المنهك عليه لكنها تمالكت نفسها ، واكتفت بأن أسقطت يديها في حضن كفيه.

كلمات كثيرة تصطخب فيه لكنها تفرّ ، الشوارع في عمان لا تبيح العشق، ولا الكلمات الجميلة، يريد أن يقول: أعرف ، أقدر ذلك ، أو أنا فداك .

– متعب أنا أيضا يا حلوتي لأني بعيد.

سارة لا أعرف لمَ أنا بعيد ، سارة ، النبي أنا التائب أسعى إليك.

الصمت ملعون ، كيف يتحرش بالكلمات ويخمدها .

شد على أصابعها . همست:

خذني من هنا .

فتح لها باب السيارة، رآها تهبط بثقل على المقعد ، أغلق الباب وانتظر وجهها، نصفه، عينيها، نصفهما، أنفها ، نصفه، شعرها، وأصابعه تنغمس فيه. كانت حزينة، متعبة، ساهمه تنظر بعيداً.

ستطفئ جدوى الرغبة في عناقك عندما نصبح وحيدين، الشارع ملاذ البشر جميعاً إلا العشاق.

نظرت إليه .

عيناها سوداوان في ألق أبيض مشع . تلهى بتحريك شفتيه بكلمة أو ابتسامة . أشاح وجهه ، استدار من خلف السيارة، سحب مقبض الباب، اندس قربها.

عندما رفع يده إلى المقود رفعت يدها بثقل وأرختها فوق يده، كأنه أبصر دموعها ، **هل هو الشوق؟**

صار لزاماً عليه أن ينظر في المرآة، وأن يعطي إشارة للسيارات القادمة من خلفه .

تحرك، ضغط على دواسة البنزين بقوة، انطلقت السيارة وانطلقت في روحه نسمات الحرية:

– تأخرت.

– كان يجب أن أنجز المهمة.

تذكرت. مهمات الأزمنة الماضية. كان يختفي عندما يطلبون منه السفر.يترك كل شيء : الجامعة، المحاضرات ، والكافتيريا، ويتجه نحو المخيم.

في غرفة منزوية طرف مخيم بعيد ، يطبعون البيانات بوسائل بدائية تجعل الورق المسحوب حالة قدسية. الجهد ، اللوح، الأشباك، طبق الستانسل، وحجارة البطاريات المستهلكة تمشي فوق اللوح تشبع ثقوب الأحرف بالحبر الأسود. رائحة الحبر على الأصابع وفوق ورقة السيجارة ، مختلطة بكؤوس الشاي الثقيل المسخن للمرة العاشرة . والأفكار التي دارت طويلاً بين الخلايا وفي الاجتماعات حتى أجيزت لها الحياة .

يشعل سيجارة، يسترخي على السرير، ظهره للحائط البارد وقدماه تلامسان الأرض.

تأتي مع لحظة الراحة تلك، لونها القمحي، شعرها الأسود الغزير تطلق عنانه على ظهرها، يصهل فوقه مثل جواد جامح.

تضحك وهي تسلم على الرفاق، تنحني تقبله، تسحب يده المعروقة القاسية تدنيها من أنفها المدبب الرفيع، تشمّ :

هذه هي رائحة الحبر؟

يحاول أن يشرح لها، ليست الرائحة فقط ، إنها الوجود الكامل كله في هذه الغرفة.

الأوراق، الآلة ، الحبر ، صياغة البيان، التعب، واحتمالات المداهمة، التعليقات الطريفة،كؤوس الشاي، تلك هي الرائحة.

تناكفه:-

– حبر ، ماذا غير ذلك؟؟

تفر منه.

يركض، يمسك بها، يشدها إلى صدره، يلمس أنفها صدره المشرع، تشمّه، تعانقه.

– رائحتك الزكية .

– يرسل ذراعه تحيط عنقها، يدس أصابعه في شعرها المنهمر غزيراَ .

– عرفت الآن؟

– أفهمك مُذ كنت طفلاً في المهد.

– أنا؟

– أعرفك مذ كنت طفلاً.

– حقاً؟

– أحبك مذ كنت طفلاً.

المهمات تتغير، تصير مختلفة. مشاريع ،وطرقاً بعيدة عن العمران، وعمالاً ، عشرات منهم ينصاعون لأوامره، يخافون حضوره وتعليماته الحاسمة ، بحكم الضرورة ، تغيرات المعاني، مبرر التحكم والهيمنة، الراتب وحالات معاش العمر، والعمال الذين يسعون لتفجير الاستغلال والقهر بسذاجة وعدائية، بصراعات لا تبارح مجموعاتهم، قيد أنملة .

هنا، عمال مختلفون، ينظرون إلى حيواتهم وكأنهم الأسياد، سعداء بتعبهم، سعداء بالإنهاك الذي يصيب أبدانهم كل يوم، بقلة

الأمن، بالأسياد الكثر الذين فوقهم، باللقم الجافة التي هي كفاف يومهم ، بالشمس والرطوبة اللتين تأكلان أعمارهم بشراسة.

سعداء لأنهم استطاعوا أن يخترقوا جدران أوطانهم العالية وحالات الفقر والقهر هناك. يشعر بهم، ينتابه الحزن للحوار الذي لا يكتمل معهم، يقسو عليهم رغم أنه يشعر ويشعرون أنه الأقرب إليهم من الآخرين، يقدر على الفهم، يبحث عن نقاط الالتقاء وهي قليلة، بعضهم عنيد، بعضهم مدسوس، بعضهم رب عمل في بطن عامل كادح، وكلهم يعرفون أن ما يأخذونه لا يعادل قيمة الأوامر التي تلقى عليهم، يعتاد ذلك ويجهد بالبحث عمن يمكن أن يلقنه الجريدة بالسر.

– تأخرت.

ينبس وكأنه يهذي.

لا أدري كيف كنت أجبر نفسي على قبول كل الأوامر، العمل ؟ أليس هو مبرر الحياة ؟

هناك لا وقت عندي لأن ألتقي أي عامل على انفراد، عندما نرجع إلى السكن يكون التعب قد أكلهم، ينامون قبل أن يهضموا طعامهم، وأظل وحدي، لا أقدر على القراءة أو الكتابة، وأسعى للخلاص من التفكير بخطط وبرامج اليوم

التالي لأفر إلى نفسي وإليك ، فلا أقدر. كمية الحديد المسلح، الأسمنت، سيارات المشروع، كم تسلمنا؟ ماذا تبقى؟ العامل الذي ذهب في إجازة ولم يرجع.

البدو الذين يسكنون قربنا يصحون مع الفجر ليراقبونا، يبقون طوال اليوم ينظرون بلا كلل حتى المغيب، وكأنا أتينا من كوكب آخر ، يتناوشون قطع خبز يابسة تركت خلفنا، يقضمونها، يرفعون علب البيبسى الفارغة إلى أفواههم حتى تكاد تدق أعناقهم، يبحثون عن بقايا السائل السحري الذي كان بها لكن بلا جدوى .

يراقبون كل شيء بدهشة، الحجارة، الخلاطات، المسامير، يتناوبون المراقبة، يتغيرون. أراهم أحيانا أطفالا ثم شيوخاً ثم نساءً حتى يأتي رجالهم ويصبحوا خليطاً من الكائنات، الماعز، الكلاب، أبقار ضامرة ... وهم .

سارة، أعرف أني تأخرت، كلما جئت نحوي طردتك من خيالي ، لا أتحمل فراقك ولا أتحمل عد الأيام التي تبعدك عنيّ، رغم أني أعدها في الصباح وأعود لأعدها قبل أن أنام.
– تعبت، لكن ما العمل ؟

الراتب لم يعد يكفي الالتزامات المتزايدة، أمي تطالبني بكل ما تحتاج لإخوتي وكأنها كانت توفر حاجاتها منذ جاءت بي إلى الدنيا حتى اشتغلت ... والأسعار عجيبة كأنها أرانب تتقافز من جراب حاو ، كل يوم تعلو. ما الذي تغير في الكون لتتغير الأسعار فالأصل كان كما هو الآن؟ الفقير لم يكن يملك ثمن الأشياء عندما كانت رخيصة ولن يملكها إذا ارتفعت. فعلى من تزاد الأسعار؟ هل يبحث مسببوها عن مبرر للثورات حتى يخلقوا المبرر للقمع ؟ ام ان الفقراء وعوا ذلك فلم يثوروا؟

صرت مملاً لا أدري ماذا يتحرك فيّ ويحاول الخروج.

أعرف أن اليوم عيدك، صدقيني جئت هارباً من الأشغال الكثيرة، لا أدري ماذا سيحدث لي لو فقدت بهجة هذا اليوم، كأني أفقد عمري، ميلادك يا "سارة" هو ميلاد حياتي، أحبك، أحب هذا اليوم الذي سعد بحضورك إلى الكون وإلى الأيام.

– أرجوك ، لا أقدر أن اعتذر عن عمر كامل.

*****

الفصل الثاني

أحـوال

١. حال أولى :

الليل استقر، واشتعلت أضواء المدينة ويافطاتها الإعلانية العملاقة، وانبعثت رائحة الشورما والفلافل من الكافتيريا القريبة على ناصية الطريق ، وتعالت صرخات أولاد الهنود وأمهاتهم في ساحات البنايات الضخمة المتلاصقة، مبهمة، مرتفعة، صاخبة.

المكيف القديم ينشج بصوته الخشن . تأتى من فتحاته المغطاة بالأتربة دفعات هواء باردة، كان يجد متعة كلما دس عود الثقاب في زوايا الفتحات وبدأ بسحب هذه الكتل الرطبة، تلتصق بالرأس الأحمر المدبب يرفعها بحذر ويمسحها

بإصبعيه، يكرر ذلك مرات حتى تصير الزوايا قائمة بالفعل.

عندما استقر الليل لم يكن معنياً بذلك ، رغم أن حركة المكيف كانت بليدة ثقيلة والهواء القادم لم يكن بارداً كما يجب. انهمك بالوقوف أمام النافذة يراقب الطريق.

كلما وقفت سيارة دقق (سلطان) النظر في النازل منها ، ويحاول أن يسرق لمحة من وجه السائق. كأن شيئاً غريباً من الفضول يتحرك فيه، إثارة شاذة.

وكلما خطرت أنثى أمامه تخيلها فداعبته متعة داعرة توشك أن تهزه ، لكنه يغلبها في البحث عن إثارة أقوى.

ماذا ترتدي اليوم؟ أي إغراء اختارته في ملابسها وأي عطر سكبته على بدنها؟ كانت وحدها وخرجت من دون أن تحمل عناء وضع ملاحظة صغيرة له تخبره عن اتجاهها .

– ليتها تقول.

أي رابط يربطه بها ، المصادفة التي جمعتهما في حفل عشاء الشركة، أم إحساسهما أنهما يسيران باتجاه واحد منذ التقت عيونهما للمرة الأولى وخُلق الحوار ؟ أم حلمهما بالحياة

الزاهية الجميلة وسخطهما على أكذوبة القيم التي أفقرت أباه وأباها حتى الجد الأول ؟

أحس أنها قريبة منه ، شيء ما يشده إليها رغم أن رواسب خوف كانت تنساب من بين أضلاعه، حركاتها الماجنة ، لباسها المكشوف ، دوران الرجال حولها ، ميلانها نحوهم، النظرات المريعة التي تتبادلها مع كل واحد منهم على انفراد رغم التصاق زوجته به. قرر : لا بد أنها تعرف ألوان سراويل نصف الرجال الموجودين في المكان.

حسم أمره لا يمكن أن يتعامل معها.

ودعها عند انتهاء الحفل ، وفي اليوم التالي كان قد نسيها تماماً حتى استدعوه إلى السيارة ، كان التلفون ملقى على مقعد السائق، رفعه إلى أذنه وهتف:-

- ألو.

ارتجف عندما سمع صوتها بنبرته المثيرة الناعمة، أحس نشوة تخترق بدنه مثل سيف . سقط على المقعد، مد رجليه خارج السيارة همس:

- عرفتك.

قالت : أريد أن أراك .

رد: اليوم؟

اتفقا على المكان والساعة، أعاد الهاتف إلى موضعه بعدما تفتحت مسام وجهه المغلقة من الرطوبة والغبار، واستعاد نشاطاً كان قد استُهلك طوال يوم كامل في الصحراء.

تجاوز العمال والخلطات ، وأسياخ الحديد المبرومة الغليظة الممتدة على الأرض، وصل بناء الأسمنت الجاهز فوق كرفان سائب بلا قاطرة، قفز الدرجات القليلة بحماس، دفع الباب ودخل ، كان المحول الكهربائي يجهد في تشغيل ماتور مكيف الهواء الضخم الذي احتل صدر المكان وترك فسحة ضيقه لباب صغير يؤدي إلى المرحاض. قرب الباب مغسلة وستارة تخفي قاعدة حمام تتسع لوقفة شخص واحد. لم تؤثر به حال البرودة التي انغمس فيها ، توجه نحو براد صغير سحب منه زجاجة ماء رفعها إلى فمه وكرع نصفها ، تركها فوق البراد وتكلم للمرة الأولى :

– سآتي بعشائنا من المدينة، انتظرني.

كان ناصر الحاج منهمكاً فوق خرائط مرسومة بالكوبية ،

تحت ضوء فلورسنت قصير، رفع رأسه وسأل:

– إلى أين ؟

– موعد عظيم، امرأة .

في المساء انطلقت الصافرة، وصار العمال يتبعثرون في جهات المشروع نحو بيوت الزنك المنتشرة قرب المكان ، اغتسلوا وشربوا من ماء الخزانات الحار .. سكبوه على وجوههم ، على أعناقهم ومنها إلى صدورهم المشرعة السوداء القاحلة.

اندس **سلطان سالم** قرب السائق وأمره أن يسرع . كان قدامه برنامج طويل حافل ، حلاقة ذقن ، حمام بارد، وكرع زجاجة بيرة تبعد عن حلقه جفاف الصحراء.

*****

لم يتبق ما يذكره . سنتان انقضتا على تلك الليلة. ها هما معاً ، زوج وزوجة، لم يكن حباً أبداً ولم يعرفها غير لحظات الطعام المشتركة، ولقاءات السرير إن هي أرادت ذلك .

هاهما مرتبطان برباط مقدس ، والقرار دائماً لها :

– العمل له الأولوية ، اغتنام الفرص . الفرصة لا تأتى إلا مرة واحدة، وفرصتنا هذه الأرض ومغانمها التي تغدقها بسخاء. لنعمل وننس ، لن نتذكر شيئاً ولن نعاتب بعضاً على أي أمر يقترفه الآخر، يجب أن ننظر إلى أن الحياة تمشي بسرعة.

ويجب أن نخلق ما يحفظ لنا حياتنا.

فيما بعد سيأتي كل شيء : البيت، الأولاد، سنكوّن عائلة كبيرة ، وعندما نوفر لها كل ما نريد لن نجد وقتاً للندم .

أما الحب فلا وقت له الآن ، لا تشتق ولا تحزن، كل شيء له زمانه ، وزماننا الآن فرصة الإثراء .

كأنها كانت تقول له كل ذلك . تصرح به كلما حاول أن يعاتبها أو أن يشتاق إليها ، وحتى عندما يرغب في أن يكون له بيت خاص مثل الآخرين ... كابوس قاس اعتاده، كان يلح على روحه بتذكر أيام الفقر والجوع وسهر الليالي تحت ضوء الشارع ليخلق المبرر لصمته العجيب.

(سلطان سالم)

أحنى رأسه أمام المحقق .

– عددت الأسماء ، قلت ما كنت تسمعه وتراه وزدت من عندك، رأيتهم يوزعون البيانات ؟

– لا يثقون بي.

– ماذا تريد؟

– أن أعمل معكم .

– ها أنت تعمل ، تسلم التقرير وتقبض.

– لا ليس كما تظن، أريد أن أكون أكبر من ذلك، اختبرني.

– أنت مكشوف يا سلطان .

– ماذا تعني؟

– لن تفيدنا أكثر، أضحوا يعرفونك كلهم ، كما أنك يا سلطان تملك روحاً ثقيلة لا تدخل إلى النفس بسهولة .

– و كل ما قدمت؟

– قبضت الثمن، أولا بأول. وقدمت واجبك تجاه الوطن.

أي وطن؟ تساءل في سره.

أي وطن لك يا سلطان المتعب؟ لهم كلهم أوطان تراها في القصائد وفي عيون الحبيبات، في فرح أمهاتهم وفي

البيوت العزيزة.

وحيداً تعيش رغم اكتظاظ العمر وازدحام الزمن . لا أحد يراك ولا أحد يعرفك.

تراهم، تسمع ضحكاتهم، دعاباتهم المرحة، خططهم لذاك النهار ، وخططهم للعمر القادم ،

لا خوف منك، ولا معنى تحمله غير أنهم يتجاهلونك، لم يعد لك وجود بينهم . الفرار يا سلطان ، اهرب كما يليق بك ، ستجد ألف أرض تعطيك تصريحاً لدخولها، في الأرض متسع لمن هم مثلك.

اقترب ضوء السيارة من البناية، توقف على الحائط القريب. أبصر السيارة ورأى الباب يفتح، أخرجت رجلها فلاحت فخذها الملتفة البيضاء .

ظلت رجلها معلقة خارج السيارة لحظات، كانت تحادث السائق، تململت أكثر من مرة تمنى أن يكون هناك ليسمع ما يقال.

بدل من وقفته على النافذة، انحنى كثيراً ،مد بصره فوق الرخامة الملتصق بها، حاول التعرف إلى السائق. سيارة فارهة، أكثر من سلك للهاتف علق عليها . انحنى أكثر ، تحرك، تبين يداً

وحطة بيضاء ناصعة . أحاطت اليد عنقها.

أنزلت رجلها الثانية، وبسرعة انسحبت من السيارة. أحنت ظهرها ومدت يدها مودعة . كان خصرها ناحلاً محاصراً بزنار يشده فيبرز عجيزة مستديرة مثيرة .

أغلقت الباب ومشت.

ظلت السيارة واقفة لحظة ثم انسحبت.

وصلت ساحة البناية ، داعبت شعر بعض الأطفال الهنود، واختفت من أمامه . فرّ من أمام النافذة ومن المراقبة، هرع نحو الصالة أشعل التلفزيون، جلس أمامه ، مدد رجليه على وسادة منفوخة بالقطن ، مزركشة برسوم فرعونية، سحلت عن فخذه بيجاما النوم التي يرتديها فبدا الشعر الغزير الذي يغطيها . لم يكن معنياً بما يدور أمامه في التلفزيون من أحداث ، كان منتبهاً يصغي لوقع أقدامها حتى رن جرس المصعد. لحظة مضت كانت تدس المفتاح في الباب وتدخل ، هتفت عندما رأته:

– مرحباً.

كانت مرحة ، تنطلق جذلى في أرجاء الشقة، صرخت وهي تراقب فخذه العارية :

– أخفِ هذا الجمال ، لا أقدر على المقاومة.

– حقاً ؟ سأل بابتسامة خبيثة .

– بالتأكيد.

وبخفة قفزت نحوه، جلست على فخذيه.

كان يشم رائحة مزيج من عطر ، أو عرق رجال أو خمر أو ... ، وأوشك أن ينتهي.

******

٢. حال ثانية :

– تعال .

صرخ بصوت عال مرق من بين البنايات الشاهقة المغلقة نوافذها فلم يسمعه أحد.

كان ناصر ملتجئاً بالغرفة الباردة، وصوت المكيف المتردد برتابة هائلة تغمر المكان حتى صارت من موجوداتها التي اعتاد التعايش معها.

الخزانة البيضاء ذات البابين، على أحدهما مرآة طويلة، والسرير العريض والطاولة الصغيرة ، منفضة السجائر، كرسي خشب، علبة السجائر المفتوحة الملقاة على ظهر طاولة منزوية ألقي عليها بعض الكتب والأوراق ومغلفات البريد الجويّ وصورة كبيرة "لسارة".

كان يجول بالغرفة عندما لمح سلطان " يشير بحركات هستيرية يحاول أن يوصل رسالة ما.

الإنسان خرافي عندما يتكلم بلا أصوات، مهرج، مجنون شارد من داخله، غموض عجيب أو وضوح مضحك،

حركات، إيقاعات، أبعاد جديدة للأشياء، للأفعال.
الإشارات رموز، يخلقها "سلطان " بفوضى ودونما نظام، حالات بدائية في الاتصال بالآخرين رغم تقدم الزمان.

توقف أمام النافذة وابتسم ، أشار له سلطان بيده، مد إصبعه أسقط قفل النافذة، سحب الشق وأشار:

– ماذا؟

– تعال ، تعال للغذاء .

أشار له:

– شكراً .

عاد يصرخ:–

– أعدت "مها " وجبة سمك .

كان الهواء اللاهب يتقافز إلى الغرفة من النافذة المشقوقة بجسارة ولهفة. تردد واحتار كيف له أن يعتذر بصمت. حتى حسم "سلطان " الأمر بصرخة عالية:–

– ننتظرك.

هز رأسه موافقاً، أشار مودعاً، أقفل النافذة بسرعة، كان الهواء البارد قد تكسر بالكتلة الساخنة التي تسللت إلى

الداخل، دار في الغرفة ، أدار مفتاح المكيف إلى أعلى درجة، تناول سيجارة أشعلها، ألقى بجسده على السرير، تلاصق فخذاه العاريان، احتكا، ثم صارا وكأنهما ملتصقان بقوة بفعل الرطوبة التي تجمعت بينهما للحظة واحدة غابت فيها البرودة.

أمر يثير فيه نشوة خاصة، بحركته اللاإرادية هذه يحسها تدخل إلى بدنه المتعب تبثه دفئاً ساحراً.

ماذا يسمي هذا الدفء الرائق الممتع رغم القيظ والحر؟

حاول أن يفلسف ذلك، سماها حال وسط بين البرد والحر ، إنها الدفء ، بُعد ثالث من أبعاد الكون الطقسية. إنها التعادل الحقيقي للكون والأشياء وللبشر .

ضحك بصوت عالٍ، صمت،جاءته "سارة" حاول أن يعالجها بمخيلته.

رتابة صوت المكيف ولسعة البرد الناشزة أخرجته من الرغبة.

وقف .. توجه إلى الحمام، فتح صنبور الماء، اندفع الماء من فوهة الدش ساخناً، أخذ البخار يتصاعد ضبابا حوله لا يلبث أن ينقشع مخلفاً على جبينه وذراعيه وفخذيه المشرعين رطوبة ساخنة. تلهى بتحريك المفتاح، اندفع الماء كالقذيفة المديدة ..

يتحسسه، أدار المفتاح الآخر اندفعت المياه من السخان باردة، لحظة وتعادلت الحرارة، خلع لباسه واندس تحت الماء الغزير المنهمر ، انهالت على بدنه قذفات الماء المندفع بشدة، تناول الصابون أخذ يفرك صدره وإبطه وعنقه.

أتعرفين ما أتمنى ؟ رمقته مستغربة

أن نستحم معاً.

ابتسمت خجلاً.

أحلم أن أغسلك، أفرك بدنك، أغرقه بالصابون حتى يختفي ثم أبدأ بكشف عريه بالماء كما اشتهي، سأكشف عنقك بدءاً .

قطعت حلمه.

– لن اتحمل.

نظر متسائلاً:

– أتحسس ، سأضحك كثيراً.

ضرب على جبينه.

– اتركيني أحلم، حتى أمي كانت تستحم مع أبي.

– كنت تراقبهما ؟؟ كنت شقياً وأنت صغير؟

شعر بانتعاش مثير، أغلق صنبور الماء، تناول المنشفة

وضعها على رأسه فرك شعره بقسوة ثم جفف الماء عن جسده، أحاط وسطه بالمنشفة ربطها حول خصره أخذ جسده يتعرق من جديد.

رجع إلى الغرفة. المكيف ما يزال ينشج بضجيجه الروتيني ، توجه إلى المرآة، فتح الخزانة، تناول مشطاً، سرح شعره ثم بدأ بارتداء ملابسه، انتهى بسرعة وخرج.

*****

فتحت "مها" الباب كانت أنيقة كعادتها رغم أنها غطت نصفها الأسفل بمريول مطبخ، مدت يدها مرحبة، وسحبته إلى الداخل، بدت مشغولة ورائحة شواء السمك تنبعث من أرجاء البيت .

– دقائق وأكون معكما، سلطان في الصالة.

استدارت، نظر إلى ظهرها المكشوف، فكر بما يقال عنها .
مؤخرة كفيلة بإطفاء ظمأ عشرة رجال.
تبسم لفكرته الماجنة، هز رأسه (هذا ما يقال) .

تساءل في سره ماذا تكون غير باقي النساء أو حتى الرجال في هذا الزمان ، أو ماذا تكون غيره هو " ناصر الحاج " المناضل ؟ . لديها ما تبيعه هنا ولديه هو أيضا ما يبيعه . هي لن تخسر قيم وأخلاق البلد الذي جاءت منه ، لا أحد هنا يتحدث عنها سوى لرغبة داخله أن تعطيه كما الآخرون ، وكلهم يعرفون أنها قادرة على فتح جميع الأبواب المغلقة ، عندما تعود إلى وطنها وقبل أن تقلع بها الطائرة تكون قد مسحت الألوان التي تلوث وجهها، وتكون قد غطت شعرها بمنديل من الحرير لتقرأ دعاء السفر .

كلهم متشابهون ، الرجال والنساء ولا يوجد من هو بلا خطيئة حتى يرجمها .

تلقاه "سلطان ":-

– ادخل .

كان منهمكاً بإخراج شيء ما عالق بجهاز الفيديو :-

– سأريك شيئاً عظيما.

جلس على مقعد بعيد من دون أن يطلب منه وانتظر.

لسلطان عجيزة مستديرة بارزة ، قبيحة، ضخمة، تبدو وكأنها ابتعدت عن ظهره ثم سحلت وحدها، أو أن آلة حادة بدأت تقطع سلطان من أسفل عنقه، ثم قبل أن تلامس عجيزته انسحبت بضع سنتيمترات وأكملت القطع فبرز نشازها الرهيب.

تساءل عما يدور في نفسه من أفكار، هل هو الملل أم الفراغ؟

انتهى أخيراً مما يقوم به من عمل:

– سأريك شيئاً قبل أن تأتي "مها" .

ضغط على جهاز الريموت، ظهرت على الشاشة صورة مهتزة لم يتبينها أول الأمر، امرأة عارية بفخذين طويلتين ملتصقة برجل ، قطعت الصورة قبل أن تتضح له، خرج "ودي بيكر" نقّار الخشب من برميل بيرة فارغ، طار عالياً ثم هبط فوق قبعة رجل قصير بشاربين طويلين، نقر القبعة المكسيكية وعاد يغنيّ والرجل القصير يطلق الرصاص في كل اتجاه.

– الفيلم قديم.

اختفي نقار الخشب وعاد الرجل والمرأة بصورة أكثر وضوحاً.

– ستدخل "مها".

لم يعر سلطان الملاحظة اهتماماً ، مشى إلى أقرب مقعد، ألقى بإليته عليه:–

– انظر كم هو ضخم.

– هذه مبالغة .

استمر سلطان بمراقبة الفيلم، حاول هو أن يتلهى بالنظر صوب أثاث المنزل حتى أحس أن هنالك من يراقبهما. نظر خلفه، كانت "مها" تنظر إلى وجهه بتفحص، عندما نظر نحوها انسحبت مسرعة وكأنها تفر من شيء يطاردها ، عاد ينظر إلى سلطان المنهمك بالمراقبة.

– ستدخل زوجتك.

لم يعر الملاحظة اهتماماً ، قال محاولاً تهدئة خاطر صديقه:

– ستنادي عندما يصبح الغداء جاهزاً.

ما الذي كانت تبحث عنه في وجهه؟ تساءل، نظرة لها خصوصية غريبة بالكاد كان يقدر على تبينها، لم تكن ودودة أو فيها محاولة للاكتشاف . كانت نظرة سلبية بلا حدود، جافة شرسة، لا رائحة للأنثى فيها. سمع صوتها يأتي من بعيد من المطبخ:

– "سلطان " الغداء جاهز.
هب سلطان واقفاً، أطفأ جهاز الفيديو، أمسك بيد ناصر:
– إلى السمك.

كانت الطاولة عامرة ، سمكاً مشوياً ومقلياً . حبات جمبري متبلة فاحت رائحة توابلها في المكان. صحون البطاطا والسلطة الطحينية والخبز المحمص ، ولم تكن "مها" هناك ، سحب الكرسي وجلس يراقب المكان . نظيفاً مرتباً رغم الدخان الذي تجهد شفاطة الهواء بإخراجه من النافذة ، بحث عنها لم يجدها، أشار عليه "سلطان " أن يبدأ وتوجه نحو المطبخ عاد بصينية عليها بضع كاسات وزجاجة عرق، وزع كأسين منها أمام كل منهما وضع الزجاجة ثم رجع ثانية إلى المطبخ ، غاب قليلاً وعاد يحمل وعاءً مملوءاً بقطع الثلج وضعه أمامه .

– لفتح الشهية. قال.

كانا يتفقان على المعيار عندما دخلت بهدوء ، كانت قد بدلت ملابسها كلها، ارتدت بنطالاً فضفاضاً بحزام عريض وبلوز مفتوح أظهر استدارة كتفها وجزءاً من صدرها حيث سحلت فيه قلادة ناعمة كأنها سهم دقيق الحجم. نظر إلى عينيها فلم

يجد فيهما غير الحياد ، حاول البحث عن تلك النظرة التي رمقته بها منذ لحظات عله يجد معنى أو تفسيراً، لكنه أصيب بالدهشة عندما أبصر حيادها العجيب. عندما التقطت هي نظرة الدهشة في عيني "ناصر" أشبعت فيهما رغبة ما كانت لتتحسسها وحدها، صراع حاد كان يختلج داخلها من دون أن تبدو منه على محياها أية علامة ، كانت هادئة، مجاملة، لطيفة .

– أرجو أن يعجبكَ . قالت وهي تشير إلى المائدة .

– أراهن أنه طيب.

تناول الطعام، شرب بضع كؤوس من العرق فأفلتت عقدة لسانه، تحدث عن طرائف العمال الهنود، والعمل، وتحدث عن فاشية "سلطان " وتجبره بهم وسلطان يهز رأسه راضياً. و"مها" تبحث في ما تسمعه عن شيء آخر مختلف، لم يطرقه الاثنان بعد.

استمر ناصر بالكلام من دون أن يكبح جماحه شيء ولا حتى نظرات "مها" التي كانت تحثه على كسر المألوف ، والقفز فوق حواجز الإتيكيت مسافة أعلى ، واختراق حدود الجلسات الرسمية في حضرة المرأة ، رأى في عينيها حواراً مشرعاً متعرياً حتى من ورقة التوت ، كانت تقول إني رأيتك

تراقب الفيلم، وإن "سلطان " يخبرني كل شيء عن أصدقائه وقصصهم ، إني أعرفك.

لكنه واصل سرد قصص الهنود وحوادثهم، وكأنها ملت الانتظار، ولم يعد لديها جلد على سماع المزيد حتى واتتها اللحظة المناسبة وتكلمت:

– كيف تعيش بلا امرأة ؟؟

فاجأ السؤال نشوة الخمر في رأسه، وفقع "سلطان " ضحكة مجلجلة ما انتهى منها حتى عم هدوء طريّ المكان. أما هي فقد بقيت تنتظر الجواب بحياد عنيد، وكأنها ليست معنية بالإجابة كأنها ملت سيرة من هذا القبيل وتريد أن تجامل ضيفها إن هو رغب في الكلام. قال "سلطان " بمجون:–

– في دبي هنا لا توجد مشاكل، فالنساء من كل الجنسيات تحت الطلب .

كان السؤال استفزازاً يقصده، كبح نفسه وعاد يتذكر قراره بالصمت، وعندما عزم عليه انهمرت بداخله رغبه هائلة بالكتابة، ود أن يطلب قلماً من دون أوراق، ود لو أنه حر في أن يكتب على فرش الطاولة الأبيض الزاهي الممتد أمامه بشبق للتلوث.

صارت "سارة " قاب قوسين من أن تسمعه، قريبة حتى القلب.

قالت :

– أكتب لي .

– ألا يكفي أني أحكي لك ؟

– أرجوك، اكتب يا ناصر.

– حسناً ، أين ؟؟

– هنا .

تمد له الكف المرسومة على لوح البيتزا الورقي في المطعم "أميغو"، الخطوط البارزة تشرح خطوط العمر.

– سأشوه خط عمرك.

– افعل أرجوك.

ويبدأ بالكتابة،

تنبعث (السنجريا) من رأسه كلمات ساحرة على الورق، و"سارة" تراقب عينيه بشوق طفل ، تود أن تكبح رغبتها في أن ترى كلمة مما يكتبه الآن ، تود الانتظار حتى ينتهي لتقرأها كلها عسى أن تطفئ كثرتها ظمأها القاسي.

و القلم بيده يتحرك سلساً، تختفي الزوايا البيض الفارغة على الطبق الورقيّ بسرعة، ينازعه شوق عظيم وحب جارف.

يود أن يسكت هذا الهدير المشتعل داخل صدره بالكلمات التي تنهمر غزيرة منه، لكنه كلما كتب ازدادت فيه الرغبة، تناول طبقاً جديداً، وغاب عن المكان، صار داخل عيونها في البؤبؤ تماماً، لا مطعم، لا طاولات، ولا خدم، ولا صوت موسيقى يأتي من سماعة بالسقف ولا إبريق (سنجريا) فارغاً إلا من قطع الفاكهة المشربة بالنبيذ. لا أصوات ولا حركة ولا هواجس في داخله، لا حزن ، ولا تشتت ولا شيء، غير أنه ملتجئ بعينيها ، يغمره الدفء ويغمره فرح غريب .

تنبه. كانت "مها" ما تزال ترمقه بنظراتها الغريبة تنتظر الإجابة ، همس:

– أكتب .

ومن دون أن يتيقن من أنه نقل الإجابة الكافية، أحس راحة عظيمة. وقف واستأذن . شكر السيدة صاحبة المنزل ، شكر "سلطان" وعاد ثانية إلى الرطوبة العابقة في سماء المدينة.

*****

٣. حال ثالثة :

الكذب:

انهيار الكائنات والأفكار من ألق الحياة إلى خمودها، دوران في حالات العمر وبوح الدواخل الشريرة التي جبلتها في الناس الأفلام الأمريكية.

مع نفسه تنامى الحسم ، المواجهة، إخراج المكنونات التي خلقتها الكتب ، ومحاولات التصدي لرديء الوقت، كل الوقت .

كل شيء في هذا الكون كائن ومرسوم لخداع الحقيقة، لا الهواء هو الهواء، ولا السماء والتراب هما السماء والتراب، لحظة الرطوبة التي تشبع الهواء تحييه، وتحييّ مع نسماتها رياح الياسمين، تعبق في أنفه وتسكنه كلما خطر قرب ياسمينة.

الرطوبة الآن اختناق ، انحباس للأنفاس، وتبلل بعرق ليس هو العرق، وارتفاع سحب حمراء فوضوية في السماء القريبة، ليست من السحب التي عرفها طوال سني عمره التي انقضت.

البحر يصخب، يدفع رذاذه المالح إلى الشفاه عطشاً ، والناس يحكون لغات ،كل اللغات إلا لغته. سيخرج من نفسه،

ويحترق مع سجائره المهورة بنصيحة كمبرادوري قبيح بأن الدخان يضر بالصحة.

ماذا يبقى من الصدق، والنفس تعود نفسها على احتمال الكذب .

ترك المنزل والسيدة الغريبة وزوجها ، وخرج يحمل في رأسه تعباً وبضع كؤوس من العرق. في مدخل البناية، أبصر البواب الباكستاني مشرعاً بابه لنفحات هواء باردة تأتيه من الشقق المغلقة. اتجه صوبه وأشار عليه أن يجلس عندما رآه يهب واقفاً في استقباله، كان "بابو" يحسب أن هناك مهمة له في إحدى الشقق، وعندما وجد "ناصر" يجلس على طرف السرير بلا استئذان اندهش واحمر خجلاً من هجمة التواضع التي حلت على سكنه.

حاول أن يبحث عن حال اتصال ، اللسان غريب ، والجنس غريب وحتى اللون غريب فمن أين يكون الاتصال ، لا احتمال للتعبير عما يجول في نفس كل منهما إلا بالصمت .

تململ "بابو" وازداد حرجاً من هذا الرجل الذي طفق يحكي من دون أن يفهم منه كلمه واحدة.

بدا هادئاً أول الأمر كأنه ينقل خبراً عاديا لإنسان يفهمه، ثم أسهب وكأن هناك من يطالبه بالمزيد، وبابو ينظر بعيون لا تحمل أي معنى:

– اليوم يا "بابو" استلمنا مشروعاً جديداً ، طوال الطريق كانت تتردد على مسامعي نصيحة واحدة : إن العمال هنا لا يطيقون الاحترام، وإنه يجب أن أظل جاداً وحازماً معهم ، وإنه يجب ألا أسعى لخلق علاقة خاصة بهم. فنحن في زمان العمل ومكان العمل، لا وقت للعلاقات الخاصة وإن كانت مؤقتة.

طوال الطريق والنصائح نفسها ، والطريق طويل مترب، والتراب يزكم الأنوف، والعمال الهنود يتلفعون بأردية عظيمة تغطي وجوههم . أعينهم باتت ضيقة ، ضوؤها خافت لكن لا بأس فضحكهم لا يتوقف يخرج رنينه من تحت اللثام ، يتكلمون وكأنهم طيور هجينة تتصايح .

عندما كنا صغاراً كنا نحسب أن همس الآخرين هو حديث استغابة عنا ، الهمس هنا علناً ولا حاجة لإخماد الصوت، فاللغة التي لا تفهمها هي همس أو لنقل إنها صمت ، صمت مزعج يخلق ضجيجاً .

توقف قليلاً نظر نحو صاحبه بود وسأل:

– أحسب أنك تفهم ما أعني ؟

وقبل أن يسمع إجابة لم تكن لتحدث تابع:

– قالوا لي أيضا إن الهندي رفض أن يخرج الاستعمار من بلاده ، قال الهنود : إن الاستعمار سيد عظيم وإن بريطانيا هي أمهم التي يخدمونها بأرواحهم.

هل تدخن؟

لا بأس ، أنا أدخن ، أعشق السجائر ، أرفض نصيحة الكمبردوري الذي يصنعها بأنه يجب أن نمتنع عن التدخين ، أنت لا تدخن من باب الاقتصاد، خذ.

حملق "بابو" بالسيجارة الممتدة نحوه، تفكر ثم قال :

– حرام .

– لا بأس . تابع ناصر .

هز له رأسه ، وقال :

– هل سنحاسب الهندي عما فعله جده ، نحن فعلنا الشيء نفسه هل تصدق يا بابو؟

أنت لا تعرف محمد وحيد بك الأيوبي ، ولا أنا أيضا ، حدثني عنه أحدهم قال إنه كان في بداية هذا القرن زعيماً لجماعة اسمها حزب الأحرار !! تخيل الأحرار!! أرسل إلى الوزير البريطاني "إدوار جراي" رسالة قال فيها إننا راضون تمام الرضا عن الاحتلال ومعترفون بفوائده التي نقابلها بالشكر .

هل ترى كيف تختلف المسميات بسرعة ، الاحتلال كان نعمة ، أرجوك هذه المعلومات موثقة، والأحرار هم الذين يريدون أن يبقى الاستعمار في بلادهم ، لا أدري كيف تتطور اللغة بسرعة، لا ليست اللغة التي تتطور إنها الأفكار. ماذا قلت يا بابو ؟ . لاشيء ، حسناً ، أنا لم اقرأ هذا في أي كتاب ، قد تتساءل، هي فكرة خطرت لي وأنا لا أفكر دائماً أو لنقل هذا ما عزمت على فعله، أن اصمت وألاّ أفكر. إذن اللغة كما هي لكن الأفكار التي تتغير وتغير المعاني.. فكرة عملية ما رأيك ؟

– ها بابو هل أمشي .؟ كأنك لا تسمعني .

هزّ بابو رأسه رافضاً بشدة الفكرة التي رآها في حركة "ناصر"

– أنا اعتقد أن أجمل لغة للتفاهم هي لغتي أنا وأنت . أنا أتكلم وأنت صامت أو أن تتكلم أنت وأصمت أنا ، ما رأيك ، ماذا عندك لتقوله ؟

هب بابو واقفاً ، أشار بيده :

– شاي رفيق ؟

– أجل ، Yes ، لتل شوغر .

مشى واختفى خلف ستارة بلاستيك مزهرة معلقة بين مسمارين ، صرخ ناصر :

– بابو عندك زوجة ؟

– ها؟

– حرمة، wife، مره ؟

مد بابو رأسه من وراء الستارة فتح فمه ضاحكاً.

– الحمد لله.

– و بيبي ؟

– ثلاثة نفر.

– عظيم .

رجع واختفى خلف الستارة في الغرفة الضيقة العابقه برائحة نفاذة، طرق الكاسات، وحركة بابو خلف الستارة أوحت بأن الشاي معدّ سلفاً وأن الحوار سيمتد سريعاً .

صرخ ناصر :– بابو ، محمد وحيد الأيوبي لا أظنه من أسرة صلاح الدين الأيوبي ؟

– مين نفر رفيق ؟ (من الإنسان يا صديق) .

– أنا كلام . محمد وحيد زعيم حزب الأحرار .

– كلام أول ؟

– أجل بابو كلام أول .

جاء بالشاي

– تفضل . قال بوجه يطفح بخجل الغريب . ثم همس :

– عرب زين .

– آه .

– محمد عربي ، القرآن الكريم عربي .

– شايك طيب .

رفع الكأس بيده ، هز بابو رأسه بالقبول ، رشفها بسرعة ، ثم وقف من دون أن ينتظر أية كلمة ، سلم عليه وقال :

– سأمشى قليلاً ، وسأرجع ثانية لا بد، عندي الكثير لأحدثك عنه، إلى اللقاء .

خرج بعدما أحنى ظهره تحت حبل علقت عليه سراويل "بابو" المتشابهة أشكالها وألوانها ، إلا أن بعضها فرق الزمان مسامها فبدت أضخم من غيرها ، ترهلت وأوشكت تلامس الأرض.

عند الباب عاد ، غمرته الرائحة النفاذة التي شمها عندما دخل هنا المرة الأولى وكأنها تخرج منه مثلما دخلت فيه، اعتادها وهو جالس يتحدث حتى حسب أنها جزء من الهواء الذي يستنشقه إلى أن هبت بزخمها تودعه وتسلمه إلى زخم الرطوبة المعلقة في أفق كوني عجيب، تغمره متاهة الصحراء وانعتاق البحر.

شد خطاه، شمر قميصه إلى منتصف الذارعين، وصل إلى الطريق، مشى فوق تراب الرصيف، طفق يفك أزرار القميص واحداً واحداً .

الماء ، العرق، الرطوبة، تعرق بدنه، مسح الشعيرات التي تغطي صدره.

لا هواء في السماء، والرغبة في المشي تلح عليه أكثر، وحيداً مع الشوارع الجافة، يزيدها الهواء الساخن المندفع من ثقوب المكيفات الخلفية الصاخبة، الطريق ساكن خال. وحده، وحالات الطقس الغريبة، ولا أثر لحياة فكرة يمكن أن تمخر عباب دماغه، تبلد .حبات ماء تسح من على جبينه، تغرق عينيه، حزن، بكاء، أو غرق، والأشياء نقيض.

جال بدنه بكفه، على جبينه، عنقه، صدره المشرع، تحسس العرق الغزير الحاط عليه من الفضاء المحمر أو الرمادي المتخفي، لامست أصابعه الندبة القابعة وسط صدره، داعبها كما يفعل دائماً، تحسسها برأس إصبعه، حركها بظفره محاولاً كشطها، غلبته ، شد بإصبعيه قاومت ، كان يعرف إنها لن تهزم.

–لقد علمتك العناد.!!

منذ متى أنا أعرفك؟ منذ عرفت عمري جئتني لا أعرف من أين، التصقت بي حتى صرت جزءاً منيّ، لم أتساءل عنك .. تاريخك، مقدمك، صبرك في جسدي اللا محتمل.

تظلين ساكنة طوال العام، إلى أن يأتي الربيع فتنشق عنك قشرة سوداء وتسقط. تغيرين جلدك وجلدي باق فيك، تتغيرين وأنا ثابت، أجاهد ضد الجمود وأفكاري جامدة في سماء واحدة لها لونها وطعمها الأوحد، والسموات كثيرة .

حتى أنت تتغيرين، وأنا العالق بك، وأنت العالقة بي بثبات.

أي حوار هذا الذي يصرعني هذا اليوم، تلك المرأة، وبابو ثم أنت ، أين تقبع نهاية هذا النهار ؟

سحلت أصابعه على بطنه.

عرق ، ماء مالح ثخين، والهواء شحيح.

*****

الفصل الثالث

انهيار

(١)

الضجيج باغته.

كان النهار هادئاً رغم حركة الخلاطات وأصوات الهنود والطرق بألواح الحديد وانقذاف دفعات الأسمنت من فوهات عظيمة تحدث صوت طشيش عال، وحركة دورانه حول أرجاء المشروع، إلا أن الضجيج باغته .

انهيار ، ودوي هائل.

هرع العمال باتجاه صرخة ألم حادة ما لبثت أن تلاشت بغتة كما جاءت، وبحركة لا إرادية اندفع حيث الصوت، وحيث الرجال متدافعين بخطوات سريعة وعيون حذرة تجوس ردود

فعل المراقبين من الفوضى التي عمت المكان، والسكينة التي أصابت أرجاء المشروع كله.

جاء من بعيد والمسافة تطول بالازدحام، هناك تجمع العمال، وكان هناك "سلطان " و"أحمد الزين" والمهندس الجديد والفورمان الهنديّ وسائق السيارة التي تزود المشروع بالتموين، وعامل الونش الذي يحسده العمال على جلسته طوال النهار في الظل.

أشار له سلطان – ابتعد، الأرض خطرة .

استمر ماشياً وهو يتساءل: **أين المفر إذا كانت الأرض خطرة ؟؟**

صار بين الجموع، أخذوا يفسحون له طريقاً، وصل إلى نقطة كانت قبل أيام نفقاً عميقاً، رواسب تراب كانت تسحل من الحواف على أخدود انهار على طول النفق، تطاير التراب حولهم تنفسوه بعمق ودونما حذر.

النفق، اختصاص "سلطان " في تمديد الأنابيب والأسلاك، سحبه العمال بدقة هندسية مذهلة، خطاً واحداً امتد حول

المشروع عشرات الأمتار ، انهار بالكامل الآن، تكوم على حوافه التراب الذي تطاير ذرات صغيرة كلما هبت نفحة ريح جافة يتنشقها العمال وتترك فوق شفاههم يباساً وتشققاً .

فكر لو أنه هطل المطر، سينهار ويسقط على العمال المنهمكين بتمديد أسلاك الحديد، ستعم فوضى مزعجة ملوثه بالطين، وستتجمع المياه بركاً في النفق، المهمة في الإنقاذ ستصير أصعب، سيطلبون مضخات لشفط الماء، وسيقف العمال يراقبون العملية بحياد أبله، وسيتحين" سلطان " الفرصة للفرار إلى الكرفان وحده يراقب مجلته الجنسية التي أخفاها بين ملابسه ، وسينهمك هو وأحمد بالنبش بأياديهم عمن طمرهم الردم.

لكن لا مطر هنا، والانهيار وقع.

خطأ فنيّ .

كان العمال يشعرون بالخوف، قالوا يجب أن نضع حاجزاً استنادياً كلما عمقنا الحفر. لكن الأوامر جاءت أن الوقت لن يسمح بذلك. وجوههم كلها كانت تتساءل لماذا لم توضع سدود كما هي العادة؟ كان يفهم بعض ما يقال، ملامحهم كانت بليدة محايدة، وهو عاجز عن تقدير ما يحسونه تلك الساعة ،هل كانوا فرحين للحظات الراحة هذه، أم أن الحزن يفطر قلوبهم من

دون أن تسمح وجوههم الجافة المتعبة لهذا الحزن أن يتخللها ويسافر من دواخلهم إلى الأرض والآخرين ويشعرون بهم ،ثم يتعاطفون معهم .

أقعى أحدهم قرب النفق وصار ينتحب بصوت خافت إلا أن دموعه ومخاطه فضحاه.

نظر إلى "أحمد الزين" ، قال الآخر:

– يقال إنهم ثلاثة.

– ماذا تنتظرون قد يكون بينهم أحياء. صرخ بالفورمان:

احفروا، احفروا بسرعة.

- No Hope . جاءته العبارة باردة .

انتفخت أوداجه:

– قلت احفر.

عندها أعطى الفورمان الإشارة، وكأنه يقول– أنت المسؤول عن تعطيل العمل. صرخ بهم بالأوردي، الكلمة الوحيدة التي تعلمها حتى الآن:–

جلدي ، جلدي .

بعض العمال ترك المكان وانسحب يقتنص الراحة، وآخرون عادوا يكملون عملاً بدأوه لا يحتمل التأخير . اقترب "سلطان " منه همس:

– سيحضر الدفاع المدني الآن.

سأل:

– كنت تعرف أن النفق غير متماسك؟؟

رد باستخفاف:

– لا تدع الصدمة تؤثر عليك، سترى الكثير من هذا .

أحس دفقاً من الدم الحار يصعد إلى عنقه ووجهه، أدار " سلطان " وجهه وقال وهو يبتعد :–

– التأمين يتكفل بكل شيء .

ساعات تنقضي يكون قد وصل الدفاع المدني، يُخرجون الرجال الثلاثة معفرين، يختلط عرقهم والتراب على وجوههم فتختفي ملامحهم. أحدهم ملتصق به كيس بلاستيك احتوى طعاماً تلوث : خبزا، بندورة، وزجاجة ماء ثقبت واستقر في قعرها تراب مبلل. يمددونهم قرب النفق تحت الشمس اللاهبة، يحضر أحدهم قطعاً من البلاستيك العازل للصدأ يغطى بها الجثث ويرجع إلى مكانه.

ساعات ويعود العمل، يسكب العمال الخلطات الإسمنتية الجاهزة على أسياخ الحديد المبروم الممدود على الأرض. تنفر قذفة الأسمنت من الخرطوم العملاق وكأنها تخرج من أحشائه قيئاً صلباً.

تعرف رجال الشرطة على الأموات، حملوا الجثث وابتعدوا يطلقون صفيرهم المميز. صدر الأمر من جديد لحفر النفق.

كان "ناصر "يراقب ما يدور ساهماً، تخطو على ملامحه محاولة يائسة لمقاومة الرغبة في القسوة التي تكاد تفترس قلبه.

هل يذكرهم ، هل ألقى أوامره عليهم يوماً، الموت حق .لكن لماذا تسير الأمور بهذا القبح هنا ؟

أصابت جسده رعشة خفيفة ، ودوار ، حاول أن يبعد الأمر من مخيلته ، لكن كيف ؟ سأل نفسه .

نظر إلى "سلطان " والآخرين، حتى العمال عادوا إلى العمل وقد نسوا ما وقع ، كانوا وكأنه لا يوجد بينهم من يعرف أولئك الذين سقطوا ، أكل معه ، شرب معه ، ضحك معه أو حتى عمل معه. صرخ بنفسه أن تهدأ ... هذه ردة ضعيفة أمام حقيقة ثابتة هي الموت ، تمتم :-

السر العظيم ليس في الموت ، بل في الحياة .

في الليل ، تقلب، أحس ضيقاً يحط على صدره ، اعتراه كابوس، استيقظ مفزوعاً تنبه "أحمد" و"سلطان " زملاء

السكن، ناوله أحدهما زجاجة ماء باردة شعر بنقاطها تحفر في حقل يابس جاف ، أعطاه "أحمد" حبتي أسبرين تناولهما، عاد للنوم وعادت الكوابيس تطارده.

في الصباح كان العرق قد أجهده ولم يعد يقدر على الحركة .طلب "سلطان " من السائق أن ينقله إلى المدينة. عندما ابتعدت السيارة عن الطريق الصحراوي أحس انتعاشاً أعاد إلى وجهه الأصفر بعض الحيوية ، كانت السيارة تهتز والمكيف يبعث دفعات قوية من الهواء البارد تختلط بدفء العرق المنبعث من بدنه، فتصيبه رعشة تكاد تدق عنقه.

نظر السائق نحوه وقال بتعاطف:

– ستعتاد.

المسافة تطول، والمكيف يزيد من تحلل مسامه الهشة. ود لو أنه في السرير .

أغمض عينيه وأصاب إغفاءة قصيرة بين اهتزاز العجلات، بعد فترة من الزمن أحس استقراراً فقد وصلت السيارة إلى الطريق العام.

غفا ، كانت ملائكة النوم تتراقص فوق رأسه، تداعبه وتسلمه لسبات مريح بعض الشيء .

سمع صوتاً ، رنين هاتف.

هبط عن السرير، كان مستريحاً، رفع السماعة "سارة"، صوتها، نبرتها الحلوة، لازمتها كل لقاء:

– اشتقت إليك.

– وأنا أيضا.

– تأخرت .

هتف ممازحاً:

– تحتجين كالعادة.

صارت أمامه بمنامتها الوردية، ووجهها الدافئ، غسلته لتوها، رطوبة باردة لامست شعرها وعنقها، قبض على كتفها شدها إلى صدره، همس:

– افتقدتك.

– تبدو متعباً ؟؟

– لا، لا شيء كنت نائماً.

انقطع الحوار فجأة . الهاتف ما زال يرن، صمت وهمهمة، السيارة تنطلق كالقذيفة في الطريق الخالي.

(احذر الحيوانات الضالة) يافطة معلقة مرسوم عليها ظل لجمل .

– هذا تلفون لك. جاءه صوت السائق.

فتح عينيه جيداً ، كان مركز دبي التجاري قد برز من بعيد شامخاً يخترق كتل الغبار السرابية التي تغطى السماء، فرك

عينيه، قال السائق:

– "سلطان" . ثم أكمل : أوشكنا على الوصول .

رفع سماعة الهاتف إلى أذنه:

– كيف صرت؟ سأله سلطان .

– أحسن.

– لقد طلبت من "مها" أن ترعاك. قلت لها تعد لك حساءً ، استرح ، لا تقلق على المشروع.

– شكراً .

أعاد الهاتف إلى موضعه.

لم يدر كيف وصل إلى السرير هذه المرة . ساعده السائق وانسحب بعدما تيقن من أنه لم يعد هنالك شيء آخر يفعله، ضغط بإصبعه زر المكيف، هبت نفحات هواء ساخنة ما لبثت أن أخذت تبرد، خلع ملابسه كاملة، اندس تحت حرام الصوف السميك قرر أن يتعرق، وغفا.

*****

(٢)

كان البيت معتماً إلا من ضوء قادم من الخارج عندما سمع صوت جرس البيت مع طرقات خفيفة على الباب، حسب أنه يحلم، لكن بعد برهة عاد الطرق من جديد. تحقق من الساعة كانت تحوم حول التاسعة. وقف، أحس دواراً خفيفاً.

لقد باغته المغيب كما الضجيج.

المغيب اللحظات التي يفر منها قبل انهمار العتمة، كلما اقتربت ساعة المغرب ترك كل ما يقوم به بلا إرادة منه، كان يرتدي ملابسه ويخرج. يكره المفاجأة حتى تلك التي تصنعها الطبيعة . كلما حبسه الوقت وغمره الظلام مرة واحدة أحس انقباضاً غريباً لا يقدر على تفسيره.

الانقباض ، نوع من القلق، القلق خوف من مبهم ، الخوف دوران في متاهة اللاشعور العصية على الرؤيا والوضوح، عقد نفسه العصية على التدجين والتحول إلى المألوف.

ليس في ذاكرته ما يقدر على مشاهدته غير أنه ميال إلى المواجهة أكثر من الترقب .

إن الترقب هزيمة ، ما زالت خلايا الدماغ تنشط في إفراز

الاحتمالات الهائلة المبالغ في تركيبها، إذن فالمجابهة هي المفر من كل الاحتمالات ومواجهة احتمال واحد فقط .

اختلطت داخله الرؤى ورجعت ظلال الاكتئاب تحوم حول رأسه، غير أن الصداع والإرهاق والطرقات اللحوحة غلبته. قام بتثاقل سحب بنطلون البيجاما ، دس فيه نصفه الأسفل بتثاقل وفتح الباب.

كانت مها . قبل لحظة من الملل والانسحاب:

– كنت متأكدة أنك هنا.

أدهشه حضورها السريع، وأحس خجلاً من عريه، لم يكن قادراً على بحث مسألة دعوتها إلى الدخول رغم تحفزها لذلك. أو الاعتذار عن الوضع الذي هو فيه.

بيدها وعاء مغطى بالسيلوفان ، شمّ رائحة طيبه استفزت الجوع فيه.

– كيف صرت الان ؟

نحّى يده عن الباب فاعتبرت ذلك دعوة للدخول.

رفعت عن رأسها الحجاب الحريري الأسود، ألقته جانباً، كانت ترتدي فستاناً أزرق فيروزياً طويلاً يخالطه خط أسود من إطار العنق إلى الخصر. على شعرها مازالت علامات التسريح طرية طازجة.

توجهت نحو المطبخ بعدما بحثت بعينيها عن الباب المفضي

إليه ، دخلت إليه وعادت بلا وعاء .

– ستأكل شيئاً؟

احتار، تردد، ثم نطق بصعوبة:

– لا أشعر برغبة الآن.

توقفت أمامه ، رمقته بجرأة ، دفعته لأن يتلهى عنها بالنظر إلى أي شيء تلقفته عيناه:

– في ما بعد إذن .

تغيرت ملامحها وهي تراقب المكان بفضول، ثم بدأت تغيب عنه ؛ بدت ترتسم على وجهها حال جديدة غير تلك التي دخلت بها . الود أخذ يتلاشى وحلت مكانه رغبة شبقة تأججت بسرعة واضحت عنيفة داخلها . كانت تجهد روحها في الفرار من أية قيمة يمكن أن تخطر على بالها تلك اللحظة.

شرودها وتغير ملامحها ، ووجهها الذي تحول وصار أحمرَ شهياً. عندما دفعته أمامها ارتد إلى الوراء بطواعية ، بعد خطوتين ارتطم باطنا رجليه بحافة السرير، جلس عليه ، كانت قد هاجت فيه رغبة شريرة مختزلة منذ قرون ، مدت يدها إلى عنقها ثم وكأنها تنزع شيئاً صلباً سحبت إطار العنق الأسود، فتباعدت على امتداد الخط النازل إلى الخصر حافتي الثوب باندفاع يدها إلى الأسفل .

لاح صدرها الأبيض صلباً مثيراً . تمدد بيسر على السرير، تنحى قليلاً تاركاً فسحة لأي حلم يتلقفه من وطأة الحمى والصداع ، سحل الثوب عن جسدها ، مد يده إلى رسغها الطريّ الناعم ، سحبها إليه، هبطت على ركبتيها العاريتين، مدت عنقها نحوه ، دس أصابعه في شعرها، وعندما أدرك وجهها كان قد انفجر في جسدها بدفقات خليط من الحمى والهذيان.

صارت تهب على جسديهما حدة عاصفة كل حين تدفعهما للارتقاء إلى غاية واحدة ينشدانها فتفترسهما لذة ماجنة .

الليل ما يزال يرزح تحت ثقل الغرفة عندما نهضت دست رأسها بفستانها المهمل على الأرض بعدما تناولته سريعاً ، اندفعت خارجة وغابت مخلفة وراءها صوت طرق الباب.

استسلم لنوم عميق . عندما نهض كان النهار قد انتصف وكانت "مها" رواسب حلم عذب ما فتئ يغيب مخلفاً وراءه تأنيب ضمير باهت، وملاءة السرير مكومه تحت الأقدام بفوضى عراك.

*****

العمر استحال بحراً صاخباً، مفتوحاً على شواطئ صخرية ناتئة ، كلما امتد كسرت امتداده الطويل تلك الصخور الشامخة تفتته وتلقي شظاياه ذرات ماء مالحة في الفضاء الرحب .

كانت نفحة خضوع تتربصه كلما تململت في داخله نزعة القيم ، تلك القيم العظيمة التي صارت في وجدانه جزءاً منه، استحالت فيه تلقائية ، سلسة ، رائقة. الإنسانية والعدل، ومزايا التكوين الثلاثي كما أفرزه سلطان اليونان القديم : الحق، الخير، الجمال. مبرر الفن ، ومسعى ذوقه العامر بعشق الحياة، وإيمانه بإيجابية الخلود وتحقيق الجنس البشري .

تطغى داخله دوامة تنازعه بين عالمين ، المغريات متفتحة أمامه باسقة، مجون الحياة، أيام الانطلاق ، الثراء، مؤشر الانعتاق في مرحلة العبور الممتدة من الميلاد إلى الموت ، سهولة الأشياء وجوازها، وآخرها أن تهب نفحة وجد روحانية، سكينة الأمن لتفسير الخروج من العمر ، والاستعداد للمرحلة التالية .

كل شيء جائز ، وكل شيء قابل للتحقق في الحياة وبعدها ، ما دام هناك غفران عظيم لخالق عظيم .

الثراء مفتاح الحقيقة التي أتعبته وحملته إلى هذي البلاد . يرتد، تنهمر في داخله حالات العمر الذي عاش . رومانسية رغم الانغماس العميق في الواقع ، الحزب، النضال، ومراقبة حركة الكون ، ليس وحسب بل تشغيل ميكانيكيتها وكل ما يتبع . علاقات ، تجارب ما إن تخطر في رأسه حتى تغشاه نشوة خاصة غريبة ليست سوى ابنة تلك الأرض وتلك الأزمان . مأزق اندس فيه بدعة وخنوع.

*****

الفصل الرابع

اللآلىء

(١)

يا بحر،

تفجر بالصوت ، وقف منتصباً فوق سور أكلت حوافه الأملاح .

تلفت لا أحد غير المغيب، والبحار العجوز، وقاربه، وتلك النوارس التي فزت مندهشة من حضوره.

القارب يمشي مختالاً ، يد العجوز تفرك في عينيه بحثاً عن رواسب هبطت عليه من تحت رفيف أجنحة النوارس ، والمجذاف يشطر البحر في دعة وسلام ، يكسر جسده الممتد الساكن هذي الساعة.

– كيف سيصل ؟

العجوز يعرف سر البحر. طول العِشْرة حددتهما، جعلتهما جسدين يعرفان كيف يلتقيان، أو تهزهما حالات الوجد فتفرقهما. هما الآن أنيسان صافيان.

مد يده المشرعة في جراب نبش فيه، ثم وكمن اصطاد شيئاً أخرجها وقد علقت بها سيجارة. دسها في فمه بلذة، أشعلها، سحب نفساً طويلاً وبلا اكتراث أسقط يده على المجذاف ، وكمن يدير دفّة مركب عظيم ضربه بالماء بقوة ثم أداره بحركة سهلة واحدة فتوجه المركب إلى الرصيف طائعاً.

صرخ:

يا بحر ،

السكون مقيت، والصخور تتبلل بلا مبالاة بماء البحر العابر جوف الخور ، لا أمواج تضربها ولا رذاذ يتطاير في السماء ليكسوها بملوحته.

أحس برغبة في الركض، ركض. أرسل ذراعيه على امتدادهما، توازن فوق السور، ركض، قبل أن يتعب توقف، قفز كان العجوز قد ركن بعيداً بقاربه العتيق.

– لقد وصلت أيها العجوز !!فعلتها ووصلت .

جلس على السور أسند ظهره إلى حافته الحديدية،

المستديرة، أرجع كوعيه إلى الوراء، اتكأ عليهما، ارتدت عنقه قليلاً، فزت في وجهه السماء المعتمة، وأسراب النوارس، بياض منثور فيها يزعق

– يا بحر، يا بحر..

*****

(٢)

أحمد الزين. المنتظر بلا ملل، المستهلك لدقائق النهار بالتجوال في الطرق المشجرة ومحلات السوبر ماركت، عاد مجدداً ، عندما التقيا قدام المصعد أضحكتهما المفاجأة.

– هذه المرة الألف.

– كنت على الكورنيش.

– البحر مرة أخرى .

– تعال ، شده من يده ، رجعا إلى المصعد ثانية:

– حسبتك مت.

وصلا ، فتح باب الشقة:

– ادخل. نحن لا نغيب بسهولة.

– هل تعرف ، أنتم والنساء الجميلات المعيار الحقيقي لخسارتنا في هذه الأرض.

تبسم ، فتح الثلاجة، أخرج منها علبتي ببسي.

– كيف؟

– هل تحسب العمر الذي يضيع كل يوم هنا بلا جدوى قيمة عادية؟؟

وكأنه يعي ما يود أن يبوح به هذا الرجل الغريب الذي حط في كوكبه بلا مقدمات. اغترابه غير ما اعتاد عليه من الآخرين،

متعباً دائماً، حزيناً ، حتى إذا التقيا انفردت أساريره، وطفق يحكي من دون أن يردعه صمت أو حرج . يستخدم كل الألفاظ، يحكي عن كل الأشياء، ما يعرفه وما يريد أن يتعرف عليه. أجاب مرة عندما سأله لماذا جئت إلى هنا ؟

– كنت ضعيفاً

ولما سأله– ولم لا تعود؟ رد وكأنه يحمل هم أجيال :–

– لأني مازلت ضعيفاً . وأكمل : ...

لا أعرف هل أكره هذه الأماكن والعلاقات أم أني أفتقد أماكني الأخرى وعلاقاتي الماضية ؟ هل تعرف مقهى السنترال، والبار ؟ أبحث عنهما هنا فلا أجدهما ، رغم أني لم أدخلهما قطّ في حياتي في "عمان". كنت أحسب دخولهما مضيعة للوقت، ولم يكن عندي ما يشغلني.

كان يعرف هذه الأماكن كما نفسه ، لكن "ناصر" لا يبوح.

– تكلم . قال .

هبّ فرحاً بالكلام:

– النساء ، لا أحلى من نساء أرضنا؟؟ في الربيع ورد جوري، وفي الصيف ماء نبع عذب، في الخريف حال حالمة، وفي الشتاء دفء أزليّ .

كرع من علبة البيبسي بظمأ ثم اكمل:

– لا أجمل منهن، لكن أمام وطأة الفقر والأحلام والقادمين من الخليج، يضعفن.، لا شيء يحرك فيهن الرغبة في الحياة هنا سوى محاولة تافهة لتجربة الحياة . كيف يمكن أن تكون إنساناً دون أن تعيش الفقر ودون التفكير في قوت اليوم التالي ولباس العيد.

– قاطعه: وهل هذه الأمور تافهة؟؟

– عندما تتحقق وتصير سهلة، نعم. أجاب بلا تردد .

– ضحك: وإن لم يحدث؟؟

– تظل أحلاماً.

– ماذا تريد إذن؟

– أن نتكلم بأمر أكثر حيوية. النساء مثلاً.

– لا أرغب بذلك.

– أفّ . صرخ "ناصر" بصوت مرتفع، ثم قهقه. ماذا تقول؟

جلس أخيراً ، كانت صورة " سارة" أمامه مبتسمة، نظر إليها ثم سأل بهدوء .

– إلى متى ستبقى واقفة هنا ؟؟

مشى نحو الصورة تأملها ثم نبس بصوت مبهم كأنه قال: مرحباً.

– من، "سارة"؟

– لمَ لم تحضر معك؟ سأل.

– لأنها تعيش الأحلام بأن لا تكون فقيرة وأن تجد لباس

العيد وتراها أجمل.

– سأل بجدية :

– تحبها؟

عندها هتفت

– سنبقى معا حتى الموت.

أصابته رعشة الحقيقة. هل يمكن ان يكون الحب عظيما ليصير بحجم العمر وحجم الحياة ؟

وكأنها أبصرت في عينه حال شك أو انبهار أقل مما يدور بداخلها تلك الساعة من حالات العشق. أحنت عنقها وهي المترقبة كلماته. ونبست:

– لا أدري كيف يكون العمر ونحن بعيدون ؟ أعرف أن الواقع غير ذلك أحياناً، لكن الآن في هذه اللحظة بالذات أموت فداء لك، لصوتك، لحنانك، لتعبك وللحب الذي أدخلني عمرك.

عندها انكسرت فيه تشوهات ما تخلقها الصحراء، الصحراء القاحلة، فكر كم هي نبيلة هذه العاطفة، كم هو نبيل الحب .

*****

(٣)

أحمد الزين،

فلاح فلسطيني، جسده خريطة لوطنه، طويل، نحيل، قوي، حنطي، وحزين عاش اغترابات كثيرة. في البداية وعندما صحا على عمره لم ير غير جنود إسرائيل يطوقون بوابة بيتهم، يسحبون أباه أو أخاه الكبير. **أصعب ما عشته هو اغترابي في داخل الوطن** ، كان يسر دائماً .

وبحجم اغترابه كان حلمه، الحلم بوطن مستقل، حر سعيد فالتجأ إلى القراءة وحسد مواطني العالم الذين يعيشون في أوطانهم أحراراً .

كان هذا في أوج الحلم وبداية الوعي.

وعندما بدأ يعي ما يدور، صار يخاف على حلمه ،كلما قرأ عن المعتقلات التي تزين دول العالم الثالث، والانقلابات العسكرية الدموية، والجمهوريين الملكيين، وآفات الفقر وتشرد الناس ، وسكن الأحياء في القبور، وتفشي الدعارة ، والإدمان، والجرائم، والرشوة ، وتحكم طبقة في كل ذلك وتحكم أميركا في هذا وذاك.

أخذت تشوب أحلامه حال قلق مبهمة.

حتى أني تمنيت مرة أن لا تحرر فلسطين لتحكم بهذا القبح. قال .

وفي ازدهار الوعي.

تيقن أن تحرير فلسطين لا يأتي إلا مع تحرير الإنسان ، فرجع إلى الحلم ثانية واستراح.

كانت مشيئة أبيه أن يسافر ، فسافر.

وخطا بإرادته في غربة جديدة.

بلاد جديدة غريبة . كل شيء فيها غريب، الوجوه، الألوان، والأصوات لكنها طيبة وأناسها طيبون.

انهمك بالكلام وكأنه ينقل من أحلامه صوراً تدور فيها مسرعة :-

- أعادوا إليّ إحساسي بأني الطفل المدلل، لعمق تعاطفهم معنا. احتلال أرضنا، تشردنا، اعتقالنا.

كانوا يرون فينا تاريخهم تحت احتلال النازية لذا تجاوزوا كل أخطائنا. تعلمت لغتهم وعاداتهم وأحببت نساءهم اللواتي كن كريمات بجمالهن وعاطفتهن .

خمس سنين عشت هناك عبرت كالفرح ، وكرمى لعيون أبي كنت أدرس بجد ، أعيش حياتي وأدرس، مستعجلاً لأن أتخرج لأحمل عبأه وتعبه.

و كان ذلك. لكن بعدما تخرجت أصابني إحباط قاهر . لم أجد عملاً وزاد عبئي على كاهل الفلاح العجوز أبي وعلى نفسي.

سافرت إلى "عمان" وقرأت عن طلب مهندسين إلى الخليج، لا أدري ما الذي دفعني لتقديم الطلب، أذكر أني تركت المقهى بعدما قصصت الإعلان من الصحيفة. مشيت في شارع السلط حائراً ، أعرف أني لا أرغب في ذلك، أعرف ذلك بثقة وإيمان. لكني كلما فكرت بما قدمه لي أولئك الذين يسكنون وراء النهر شعرت بثقل مسؤوليتي. العجوز الفلاح الطيب ، والبدن الذي هدته السنون ثم أمي وإخوتي.

فحسمت أمري لا أدري كيف؟ كنت أعرف العنوان، عمارة التأمين الدوار الثالث، ركبت السرفيس وبعد دقائق كنت هناك .

الحق أقول لم أكن واثقاً من أن طلبي سيقبل. وكنت أتمنى ذلك . لكن وليتغير عالمي كله وبسرعة عجيبة ، صرت في غربة جديدة.

هذا أنا أحمد الزين.

لا أدري لماذا أسرد كل ذلك؟؟

أنت السبب أيها المارق، أنت يا ناصر الحاج.

*****

(٤)

حسناً يا ناصر ،

كم من الحكايا تريد.؟

أي الحكايا ؟ النساء، أي جنس منهن؟ أي لون؟

ابنة الجيران ورسائل الغرام ، خصلة شعر تقصها وتلفها في رسالة كأنها أسطورة، كانت تقول:-

كلما افتقدتني احرق شعرة تجدني أمامك.

وكنت أفعل. كلما اشتقت لها أخرجت خصلة من شعرها الكستنائي وشممته، فتجيء بكل رقتها وطفولتها ، أداعبها وأقبلها إن هي أبقت خدها مشرعاً، لكنها تنتحي خجلاً فتصيب شفتاي شعرها فأكتفي من العمر بهذا الفرح.

أقف أمام المدرسة أنظر اليها تخرج بمريولها الأخضر، أعرفها من بين كل البنات المتشابهات، وفي كل ثوب يخرج من المدرسة أراها، الحق بها، تبطئ من مشيتها في طريق السهل حتى أصير قريباً منها .

تشد حقيبتها إلى صدرها وتشد روحي إلى وجهها. عندما

نصبح بعيدين عن الأعين تطلق يدها وتسقطها بجنبها فالتقطها ، وأشد عليها.

تخيل يا صديقي أن تلك النشوة الأولى التي كانت تغشاني عندما ألمسها هي التي أبحث عنها بين النساء إلى اليوم، لكنها لا تأتي.

كانت تغيب عن الوجود إذا همست لها بكلمة حب، كلماتي كانت مهانة أمام إحساسي المتأجج. كم حلمت بأني أكتب لها شعراً، كم فكرت بقصائد عظيمة أقولها لها لكن، عندما نلتقي لا أعرف غير أني أقول في آخر المشوار :

– أحبك.

في تلك الأوقات كنت أعيش أفكاراً عظيمة، فلسفات ونظريات أؤجلها لزمان آخر حتى أفرغها على الورق لتصير مؤلفات عظيمة.

فعندما أهمس لها بكلمة حلوة أنتظر الجواب على وجهها، لتهمس بعد تردد يجول على خديها وفي عينيها ببطء كأنه يخرج من أزمنة انحدار قديمة لتقول:

– وأنا أحبك.

لم يكن يعنيني الصوت قدر ما كانت تعنيني الأحاسيس

التي تشع من وجهها ، كأنها تلاحظ شرودي منها فتهمس:– ما بك أين ذهبت؟؟

لم أكن أملك غير أن ابتسم لها.

عاشت فينا العلاقة على هذه الحال طويلاً إلى أن جاءتني في يوم ، أشارت من بعيد على غير عادتها، وبلا موعد مسبق، تركت من معي من رفاق الحارة ولحقت بها. كأني كنت أراها للمرة الأولى في حياتي رأيتها من دون المريول الأخضر.

كانت جميلة، ترتدي فستانها وكأنها في يوم العيد، مشطت شعرها فأشرق وجهها بقوة، شدت خلف رأسها ذيل فرس حريرياً يلمع، لحقت بها ، وعندما صرنا خلف زاوية جدار بعيدة وقفت، كانت تنظر لي مزهوة بجمالها وبثوبها الورديّ، اقتربت منها فشممت عطراً كأنه الياسمين، قبل أن أسألها شيئاً قالت:

أريد أن ترى بيتنا.

لا أدري أية كرامة إلهيّة حطت عليّ، أية بركة خرجت من فمها وباركتني، أي عمر هذا الذي أعيش بكل هذا الكم من الفرح. كأني صرخت مشدوها: – حقا؟

قالت وهي تمشي أمامي:– ألا تريد أن ترى غرفتي ؟

تخطيت عتبة الشوق إلى الاحتراق، وتمنيت أن أجد

شيئا يسندني قبل أن أقع، أو أجد أرضا تتسع لرغبتي في الانطلاق والركض.

– أهلي خرجوا ، فررت إلى بيت صديقتي ، حدثتها عنك، قالت لي بغضب لم لا ترينه الآن؟.

فكرت حقاً لم لا أراك الآن؟

سألتها:

– وإن رجع أهلك؟؟

ضحكت وهزت رأسها كأنها تعلن صراحة بأنها لا تعرف الجواب.

مشت قدامي بضع خطوات، لحقت بها كنا قد صرنا على مشارف بيتها عندما وقفت وقالت: سأسبقك.

أسرعت وكأنها تخاف من التراجع. كان البيت قائما ًعلى تلة عالية محاطاً بسور مرتفع. احترت ما أفعل في هذه الدقائق القليلة، درت حول نفسي، وحول شجرات في الطريق. وانتظرت. أشارت لي فانطلقت.

كان تفكيري منصباً باتجاه واحدٍ فقط هو الدخول إلى البيت من غير أن يراني أحد.

وعندما خطوت أولى خطواتي داخل البيت الكبير هاجت فيّ أمور شتى ، ماذا سأفعل الآن ؟

وكم من الوقت سأقضي معها؟

عندما صرنا وحدنا قالت بتوسل:

– لن تلمسني.

أحسست خوفاً عظيماً على براءتها، وتمنيت لو أني أصرخ بصوت يهز المدينة ، أنا **فداء لكِ.**

قلت :

– لن ألمسك.

وكنت حتى تلك اللحظة لا أفكر سوى أن أشد يدها إلى صدري وإن تجرأت على تقبيلها سأفعل.

قالت:

– تعال لترى البيت.

كان واسعاً. مفروشاً بثراء، جدرانه مزدانة بصور كبيرة قديمة ، أجدادها، أو أعمامها. خرائط كلها لفلسطين مع التاريخ، صغيرة ثم تتسع، ثم فجأة يلحق أرجاءها لون أسود يمتد من أول البحر حتى يكتسحها كلها.

– سأريك شيئاً . قالت وهي تتحرك أمامي بعدما تغلبت على خوفها قليلاً.

كان الخوف مازال يغلبني أنا ، أترقب بناظري ، وأوجه سمعي نحو أي صوت يأتي من بعيد، أبحث عن مخرج أو مكان أفر منه إن وقع ما أخشاه .

تناقض هائل يتقمصني، الخوف والفرح. الاشتياق والتحفز، كيف لي أن احتمل كل هذا ؟ وكيف لي أن أخسر كل هذا الفرح بالخوف ؟

– الخوف نصف الهزيمة ؟

لحظات مضت وحسمت أمري . **سأغرق في بحر الفرح حتى لو اختنقت.**

أدخلتني غرفة صغيرة، استقبلتني صورتها بثوب المدرسة وهي تشد الحقيبة إلى صدرها، ورائحة نظافة أدارت لي رأسي. عُلقت على الجدار ملصقات لفلسطين وصورة وقصيدة مقصوصة من كتاب لتوفيق زياد . وغلاف كتاب تشي غيفارا وبضع سنابل قمح جافة ضمتها باقة قماش أحمر علقت فوق النافذة.

طلبت مني أن أجلس على السرير فأطعت. للمكان رائحة طيبة، نوع من المسك يعبق من أرجائه، على غطاء السرير وفوق الوسادة ومن فستانها الوردي الذي أبرز تكور صدرها البكر.

– انتظرني لحظة.

تركتني وغابت ، انسكب ضوء على بلاط الصالة ، وقفت وصرت أبحث في أشيائها الصغيرة : معلقاتها وأوراقها، صور وقصاصات جرائد، كلمات كتبت بقلم رصاص ناعم، كنت أحركها من دون أن يستوقفني فيها شيء متميز أكثر من كونها تخص هذه الفتاه الجملية التي أحب.

أوشكت أن أنتهي من النبش عندما وقع بيدي دفتر مزركش بتطريزات فلسطينية صنعت باليد باحتراف وحذر .

فتحته.

كُتب في الصفحة الأولى بخط عريض ، " الكنعانية"

قلبت الصفحة، قرأت:

(ولما اشتدت على الملك الكبير المصائب من دون أن يهتدي إلى كيفية إيقافها اشتط غيظا وبدأ يكفر بإيل وأشيرة، فعكف على احتساء الخمر واحتضن سرية أجنبية من اتباع بعل علماً أن هذا السلوك مرفوض بشدة من قبل الكنعانيين ما ألب عليه الكثير من الأعوان والملوك المتحالفين معه. ورغم ذلك وبدلاً من أن يعود إلى رشده ثارت سَوْرة الغضب في نفسه وأعلن الحرب على مناطق الكنعانيين المجاورة)

لم أفهم شيئاً ولم أحمل نفسي عناء إعادة القراءة، انتقلت إلى الصفحة التالية كانت تكمل ما بدأته.

(لقد جمع كبده وملأه بالضحك
وقلبه المملوء بالفرح زاد فيّ وطأة البؤس
لقد نسي أنهم مباركون هم الذين أذلهم بالدم
في شمرون حقولهم أصبحت خراباً مثل تلالهم
لقد نسي أنهم مباركون هم الذين أذلهم بالدم.

وُضِع خطٌ طويل خرج من الصفحة كأنه رسم بنزق واستعجال. تشوقت إلى الفهم فأسرعت أقلب الصفحات.

ليكن ملعوناً يوم إعلان نهاية الفرح.

ثم في صفحة جديدة.

وفي مريام الشمالية تصاعد القمع والاستعباد.

في قاع الصفحة وُضع هامش. مريام فلسطين، وبعد كلمة الاستعباد وضعت قوسين بينهما كلمتان (اجتياح العبرانيين).

بدأت أفهم الآن أنها تشير إلى تاريخنا، لكن ما الذي يدفع هذه الصغيرة إلى كتابة هذه الكلمات، ثم من أين جاءت بها؟ هل سمعتها من أهلها أم أنها قرأتها في كتاب ؟

لقد بدأ الكنعانيون حياتهم مسالمين يعيشون بذكاء كبير مع باقي الشعوب الموجودة في البلاد. غير أنهم لمّا

دحروا إلى الشمال على أيدي المجتاحين عمدوا إلى محاربة أقرانهم في سبيل العيش الذي أصبح ضرورة ملحّة.

قلبت الصفحات بسرعة كانت كلها بيضاء عدا واحدة كدت أسهو عنها لقلة كلماتها والحرف الخجل الذي خطت به.

(الشاب الكنعاني بطبيعته خجول، فكانت المرأة في الغالب أول من يتقدم بالبوح عن عاطفتها).

عندها عادت ، كانت قد غيرت فستانها وارتدت ثوباً فلسطينياً مطرزا. بدا لي طولها باسقاً يكاد يلامس السماء، أطلقت شعرها فحط على كتفها بأناة ودعة ، خرجت طفلة ، وعندما رجعت صارت امرأة كاملة.

اختلط عليّ فلم أستطع تنظيم ازدحام المشاعر والكلمات في داخلي، حرت بين الاعتذار عن العبث في أوراقها والانبهار لجمالها الملوكي. وفي الثواني التي انقضت كدهر تيقنت أنها سمعت كلمات العشق والغزل بجمالها من عينيّ ، فتركت لفمي العنان للاعتذار عما أفعله .

تلك الساعة كانت لي امرأة جديدة وغريبة ، غير تلك التي أعرفها وأشد يدها في الطريق من المدرسة إلى البيت ، أو تلك الصبية التي تشد إلى صدرها حقيبة كتبها . أراني مختالاً

قربها رجلاً، عاشقاً، وسيداً كما الرجال.

تلك اللحظة أحسست أني صغير مازلت.

نبست باعتذار ساذج، ضحكت وقالت:

– اكمل .

كانت راغبة بذلك وقد رأت أني لم أنته بعد، لم أجرؤ على الاستمرار في تصفح الدفتر ، اقتربت منيّ ولامستني ، للمرة الأولى اشمّها، كانت تلقي رائحتها إلى داخلي. شعرت بها تنتقل بين ضلوعي وفي دمي تنساب كالظل أو كهزة الفرح أو كارتعاش الحياة قبل الميلاد، أصابني دوار رائع ، أسندت بدنها عليّ تحميني من السقوط فلامسني صدرها.

حدث رائع كان يواصل اختبار بدني البكر ، الهجين ، المندهش بروعة هذا الحضور، الاكتشاف الأول، التكور الصلب لصدرها الجميل يرتطم بي ، انكسار الاغتراب الممتع عن سر انتصابته فوق الجسد، فوق الأنثى .

سحبت الدفتر من يدي .

– اقرأ لك؟

هززت رأسي. نعم.

سألتني :– أين وصلت؟

أشرت إلى الصفحة التي مازالت مفتوحة:

– الشاب الكنعاني بطبيعته خجول...

قلبت الصفحات، نظرت إلى وجهي بدأت تهمس.

نساء كنعان أشبه ما تكون بآلهة لأنهن جميلات وعالمات ولأنهن يعرفن كيف يحيين من سيموت. صمتت ورفعت عينيها ترمقان انشدادي نحوها،ألقت من شفتيها ابتسامه صغيرة وتابعت:

الحكمة على أفواه النساء، فيجب أن تبتهل إلى الله ليجعل شفاهنّ الحلوة كالرمان، الينبوع الذي تتدفق منه التعابير الحكيمة المؤدية إلى الرخاء.

كانت ملتصقة بي وكنت لا أبصر سوى شفتيها الشهيتين كالرمان.

همست:

– أنتِ الكنعانية؟؟

ابتسمت ولم تجب . أكملت:

عندما نعانق المرأة يجب أن نضمها بشدة، فتحت وطأة الحب(*) نجعلها حاملاً، وعندئذ يجب أن نبتهل إلى الله كيما يمنح الزوجة الحكمة المطلوبة فتضع للعالم أمل الإزهار الذي تحمله.

(*) وردت في النص (تحت وطأة حرارة الحرارات)

ما إن انتهت وأوشكت أن تغلق دفترها الصغير حتى تملكتني جرأة عجيبة ، مددت يديّ تقبضان على ذراعيها تحت الكتفين، كانا لدنين مثيرين، اقتربت منها وضممتها إلى صدري بشدة، كانت قريبة مني، لم أجد عناءً في احتواء بدنها بين ذراعيّ ولصق جسدي . قبلتها وكانت تلك أولى القبلات، نكهتها، عطرها، ريقها مازال في فمي خالداً لم يغب.

لماذا كلما التقى حبيبان جاء من يفرقهما؟

كنا ملتصقين عندما سمعنا صوتاً، تلفتنا كان أحدهم يحاول دخول البيت.

قالت بصوت هامس :

– اخرج من الباب الخلفي فقد تركته مشرعاً.

صرت أثق أكثر بأنها امرأة .

لم ألبث برهة حتى كنت خارجاً ، لكن أمام السور الخلفي للبيت، تهيأت بالرجوع إلى الخلف خطوتين ثم ركضت نحو السور وقفزت، أمسكت كفاي حافته ، دفعت جسدي إلى الأعلى صرت فوقه، استدرت وهبطت إلى الأرض خارج (كنعان) التي عرفت وقتها .

كان العتم قد انتشر فوق البيوت وتحت السماء، أسرعت أحاول الفرار بحلمي ونشوتي . علق بنطالي بقطعة حديد واقفة

في أرض شدتني نحوها ، فكبحت هجمة اندفاعي بقوة. علقت بها وهي الواقفة في التراب الأحمر تصنع حدوداً للأرض ثم سقطت ، لامست يدي شيئاً حاداً لم أقدر على تبينه ، ظل عالقاً بها ، سحبته ورميته بعيداً وبقيت مسرعاً، وأنا أحس بالسائل الحار اللزج الذي يغطي كفي.

وصلت البيت ، استقبلتني إحدى أخواتي، هلعت لمنظري، وعندما أبصرت الدم صرخت. طلبت منها أن تصمت فلم أكن أريد شيئاً يعكر صفو روحي تلك اللحظة.

*****

ذهبت هذه المرأة بعيداً لا أعرف إلى أين ،
ذهبت وقصائدي العظيمة فيها لم تكتب بعد.

*****

(٥)

وماذا تريد ان تعرف بعد ،

اسمي : أحمد الزين، كما تعرف .

فلسطينيّ، جسدي خارطة الوطن باغترابه الطويل، أهلي كل الناس، وبوصلتي للعمر تلك الكنعانية التي ذهبت . عندما سمعت "ميرنا" قصتي بكت ، تركت سيجارتها تذوي بالمنفضة وكأسها ترتجف بين أصابعها الطويلة النحيلة.

قلت:

– لو أنك تعرفين العربية؟

هزت رأسها تريدني أن أصمت. فهي تفهم أن المشاعر تهان أمام الكلمات الغريبة . كانت في رغبة لأن أكمل أمام دفقة الخمر التي سكنت رأسي وهيجان مشاعري التي استفزتها هذه اليوغسلافية الطيبة.

رفعت الكأس إلى فمها بالكاد لامست شفتيها نبست:

– يكفي الليلة، لا أتحمل المزيد.

خرجنا من الحانة، كانت "زغرب" امرأة دافئة في ليل من المطر، حضنتنا الشوارع الغريقة واطمئنان البيوت إلى سكينة

الليل، تلفعنا بياقات المعاطف ودفء الخمر والتصقنا ببعضنا .لم أكن أعرف أمطر ذاك الذي ينسكب من عينيها أم دموع ؟ لم أكن معنيا بهدوئها وأنا أرى هذا الكم من العطف تسكبه فيّ، رجعت طفلاً محموماً تمتد يد أمه الحانية إلى جبينه وفي عينيها حنان دافق، يهزه الألم وتنعش روحه تلك المسحة المقدسة من الحب.

عندما دخلنا المنزل كانت أمها جالسة تشاهد التلفزيون، سلمت عليها وجلست بعيداً، أما هي فقد ظلت متجهة إلى غرفتها وكأنها تحاول أن تخفي عن أمها أمراً خطيراً ، غابت لدقائق ثم خرجت من الغرفة . عادت ودخلت الحمام ، سمعت صوت الماء يتدفق من الصنبور ، شعرت برغبة في أخذ حمام دافئ، كنت قد انهمكت بمشاهدة الفيلم الذي يعرضه التلفزيون في سهرة الأحد، عندما جاءت كانت قد ارتدت البيجاما وسرحت شعرها، رفعت رأسي، ابتسمت لي ، قالت:

– سأعدّ الشاي.

نطقت أمها للمرة الأولى قالت:

– اجلسي سأعده أنا .

لم تجادلها، جلست قربي التصقت بي، كانت أمها قد ابتعدت داخل المطبخ وهي تدندن لحناً يأتي من خلفية الحوار

الذي يدور في الفيلم. نظرت إليّ:

– ألا ترغب في الحمام؟

هززت رأسي وتبسمت:

– معك؟

لكزتني بكوعها وهي تنظر صوب الصوت القادم من المطبخ :–

– وقح.

استدرت وأحطت عنقها وأنا أراقب بعيون حذرة حضور أمها:

– الا ترغبين أنت بذلك ؟

دفعتني عنها وصرخت.

– لا.

– ستكون تجربة حلوة .

– لا أريد .

– عندما تنام أمك.

شدت شعري:–

– مجنون.

– و أحبك.

هدأت ثورتها المصطنعة، سحلت تحت ذراعي برضا وتودد:

– ستتركني وحدي؟

تلهيت عن سؤالها المألوف ، حاولت أن أجيب عنه بالصمت وبجذبها من كتفها لتلتصق بي أكثر . تظاهرت بمراقبة التلفزيون، لكنها أدارت وجهي بأصابعها وسألتني بتصميم من يرغب بوضع حد لأمر ما يعتمل في داخله وبحسم يبلغ حد الانتحار:

– ستتركني؟

لم أجد نفسي معنياً بالهرب من المواجهة لرسوخ الفكرة في رأسي وإيماني القطعي بها.

– نعم سأفعل . وقبل أن تصيبها لعنة الوضوح،– أكملت– لأني أحبك، أحبك حتى أني لا أريدك أن تعيشي اغترابنا، وحزننا، وتجربة أهلك مع النازيين . أنت أرقّ من كل هذا .

قالت:

– لكنكم تعيشون كل ذلك.

دخول أمها بالشاي لم يقطع حوارنا الذي صار مشروطاً بالحسم:

قلت :

– لن أفعل.

عرفتها في السنةقبل الأخيرة ، عندما انتقلت من سكن

الجامعة للبحث عن أسرة أعيش معها حتى أتفرغ لإعداد أطروحتي . كانت تعيش وحيدة مع أمها، أبوها يعمل طبيباً في سويسرا ، لم أره طوال فترة سكني معهما. كنت أرى صوره معلقة في أرجاء البيت . أمها كانت دائماً تتلهى في شؤون البيت ومراقبة التلفزيون والضجر كما قالت لي ، لعمق وحدة الامرأتين بحثتا عمن يشاركهما البيت الواسع ، طلبت الأم ايجاراً مرتفعاً وبعدما ألفت العلاقة معي صار الإيجار آخر المواضيع التي نتطرق إليها.

اتفقت في البدء على المبيت . ثم على مشاطرتهما الطعام. ثم أصبحت جزءاً من حياتهما وهمهما اليوميّ.

كنت أول الأمر ساكناً غريباً تتجنب (ميرنا) لقائي ، وإذا عادت إلى البيت ووجدتني جالساً في الصالة أسهر مع أمها، كانت تلقي التحية وتنسحب إلى غرفتها. حتى اعتدت هذا السلوك وصرت أبادلها إياه بتلقائية. حتى جاء يوم وأسرت لي أمها بأنها تريد أن تعمل لها مفاجأة .

" اليوم عيدها" قالت وألحت علي أن أشاركها. فقمت بتعليق الأوراق الملونة والبالونات، ووضعت جملة تمنٍ على الجدار من الأوراق الملونة ، وانهمكت أمها بإعداد الكعكة وما

يتبعها ، وقبل عودتها بوقت قصير تذكرت أني أهملت أمرا مهماً وهو أن اشتري لها هدية. خرجت مسرعاً من البيت وعندما صرت في الطريق تساءلت عن اندفاعي الغريب هذا ، اهتمامي بامرأة بالكاد أشعر بحضورها أو أحتاجه.

تفكرت قليلاً، وعزوت هذا الاندفاع إلى وقت الفراغ الذي أعاني منه في ذلك اليوم، وإلى رغبتي في الاحتفال. عندما رجعت كانت المفاجأة قد قضيت، وكانت تضحك كالأطفال مع أمها . كانتا تتذكران الطفولة المشاكسة كما علمت في ما بعد.

اقتربت منها وسلمت عليها، فانطبع على خديها احمرار الخجل الشهيّ، قدمت لها الهدية ترددت في قبولها، ثم عندما ألقت أمهاً أمرا كأنه دعابة تكسر جدار الخجل، وعادت لها حيويتها وانطلاقها اللذان لم أعرفهما من قبل .

أطفأنا الشموع وغنينا ، ثم وضعت شريط أغان راقصة، راقصت الامرأتين ، شربنا نبيذاً كان مخبأً في القبو لمناسبة خاصة كما علمت ، وفي آخر السهرة الجميلة قبلتها .

لم تكن المرأة الوحيدة التي أعرف هنا، لكنيّ رأيت فيها شيئاً خاصاً وغريباً ، كانت كأنها من شرقنا وبيوتنا وحياتنا ،

غمرني دفء أسريّ عجيب، وددت لو أني ابن هذا البيت وهذه اللغة. كانت البساطة والتلقائية في حياتهما أجمل من تخيلي، وعندما صارت هذه الفتاه الخجلى قريبة منيّ نسيت علاقاتي كلها وانهمكت بها .

كانت تخجلها كلماتي ، وترعشها قبلاتي ، وتحبني كل الوقت . عندما ترجع تكون قد كتبت لي قصاصات : قصائد شعر أو خواطر هاجت في نفسها، تدسها بيدي عندما تدخل وتجدني مع أمها، وإن كنت في غرفتي تطرق الباب ثم تنتظر صوتي أدعوها للدخول فتدخل، وتكون مترددة خائفة كأنها ترقب غريباً أو غريبة عندي. وعندما تجدني منهمكاً فوق رسوماتي تتحفز، تلقي نفسها عليّ تقبلني كما أشتهي، تعطيني أوراقها ، القصاصات التي أحفظها معي حتى اليوم، وتنسحب. تهمس : انتظرك على العشاء .

أحاول إبقاءها معي لكنها تشير إلى الرسومات والكتب ، أجذبها نحوي فتتملص:

– ستسمعنا أمي .

أخرج إلى العشاء بعد نصف ساعة، أكون قد قرأت أوراقها، ما فيها من حب وما فيها من أخبار الصغار وما فيها من قصائد.

تراقب أمها تهامسنا وإشاراتنا وتتظاهر أنها لا ترى، حتى إذا تمادينا تعذرت بتحضير كوب شاي أو إعداد الطعام .ولم يكن كل ما فينا اختلاس للحظات العشق ، كنّا ننهمك كثيراً بالحديث عن الوطن والحرية ، وفي كل مرة نصير أقرب، لنا لغة واحدة وهمّ واحد وأحلام كثيرة.

عندما نكون معاً لا أملك لحظة التفكير الهادئة التي تحملها لي الصحراء ، فالحياة تنساب عادية في دعة وجمال ، ومبررات الفرح فيها كثيرة. اللقاءات الحميمة والجدل الصاخب في قضايا الفكر أو الجمال، السهرات الجماعية المفتوحة على نوافذ التحرر، العشق المعلن .

أجمل ما في تلك الأرض لحظات العشق المعلن ، إنضاج الفعل عند الرغبة، لا شيء يخفي القبلة في الطريق العام، والعناق تحت المطر يحمل الدفء طعماً آخر لا نألفه .

وهي السيدة الصغيرة الجميلة بشعرها الأشقر الكثيف القصير المبرز عنقها، البيضاء الناصعة المثيرة، ووجهها النقي تتفتح فيه عينان زرقاوان طيبتان ، وجدانية حالمة . جسدها الدقيق وصدرها النافر. الأنثى التي تشتهي وإن دنت منك اكتفيت من العمر بسماع صوتها .

عندما كنا هناك لم أكن أسائل نفسي ما الذي يدفعها

بعزيمة لأن تلتحق بي ؟ وأن تتمنى الانخراط في عمر الاغتراب الذي نعيشه.

هنا في هذه الأرض توضحت لي الحقيقة ، إنها حال الوجود في البشر ، مبررة ومثيرة .

في الغرب علمونا بأنهم يهربون من الأسئلة الكثيرة بالمخدرات والجنس. وفي الشرق الدين هو الفرار . وفينا نحن الفلسطينيين ، قضيتنا العجيبة لم تمنحنا الفرصة للهروب. بل لمواجهة الحياة، المواجهة اللامحدودة . وعندهم هنا يجدون في قضايا الآخرين ملجأ من انفلات الفكر، أو حدة الكون والوجود.

لا أقدر أن أصف شوقها لأن تنخرط في الحياة بشدة، لم أكن أنا الذي يعنيها، بل تراثها الذي تعلمته، وآثار المستعمر في البيوت وفي الشوارع وفي ذاكرة العجائز ، كانت متمسكة بي حتى أني صرت حرجاً من مقدرتي على إقناعها أن ما نعيشه ليس ممتعاً إلا بقدر إيماننا بأننا منتصرون آخر الأمر.

في صباح يوم أحد ورديّ، كنت قد استيقظت ولكني لم أغادر الفراش خوفاً على تبدد الدفء والكسل اللذين جاءا من النوم. كنت أقرأ في كتاب عربي وأستمع إلى " فيروز" عندما سمعت طرقاتها على الباب. هتفت:

– ادخل .

دفعت الباب بهدوء، وانسابت من بين حافته والجدار، ثم أغلقته بصمت وكأنها تمارس فعلاً مختلفاً لم نعتده في علاقتنا معاً.

كانت ما تزال في منامتها لكنها مستحمة ورائحة العطر تفوح منها، دنت منيّ وقبلتني وعندما هممت بالنهوض طلبت مني بإشارة من يدها ألا أفعل.

خلعت قميصها وألقته على الأرض بإهمال. ثم انحنت تسقط بنطال منامتها من تحت رجليها العاريتين، رفعت رأسي مستغرباً هذا الكرم الغامر بعدما كنت أتحايل عليها كثيراً من أجل ذلك . رفعت الغطاء، واندست تحته بجانبي، لم تعطني فرصة للكلام حتى أني لم أجد بي رغبة فيه . قبلتها وذهبنا إلى ما هو أبعد من القبلة بكثير ، كنت مطواعاً لرغبتها التي أشعلت رغبتي وكانت فيروز ما تزال تغني:

لاحت معذبتي في غيهب الغسق..

ألقت وجهها الوردي على صدري العاري وغفت، كانت أنفاسها تخرج دافئة تحرك الشعيرات القليلة المزروعة على صدري .

في تلك المرة كانت امرأة أخرى ، تتفجر شوقاً ورغبة، تمارس كل أفعالها التي كنت أتمنى، تداعبني، تهدهدني، توزع قبلاتها بسخاء وأنا مندهش لكن المتعة تلجمني.

رفعت الغطاء أغطي ظهرها وبقيت أنتظر أن تتنبه وبي شوق جارف للحوار. طال انتظاري فغفوت بفعل التعب وصوت فيروز، لم أنتبه إلا وهي تتحرك هابطة بتسلل عن السرير مثلما جاءت .

أمسكت بها وأعدتها إليّ، صرخت بصوت خافت:

– اتركني.

سحبتها نحوي بشدة:

– لن تذهبي قبل أن أعرف.

ادعت الجهل وهي تنظر باستغراب مصطنع:

– ما بك ؟

كفت عن محاولة التملص وحاولت الفرار من السؤال، أشارت بيدها إلى آلة التسجيل .

– فيروز؟

كان الشريط قد دار أكثر من مرة على الأغنيات ذاتها، أجبت:

– نعم فيروز.

هبت واقفة:

– حبيبتك ؟

رفعت عني الغطاء نظرت إلى عينيها .

– ما بك؟

– لا شيء . ردت وهي تزرر قميصها.

لم تكن تلك المرة الأولى التي نمارس فيها الجنس معاً، لكنها كانت الأولى التي تقرر هي ذلك ، كانت جسورة غير ما عهدتها، كنت أرى في عينها كلمات كثيرة تصطخب فيها تود الفرار ، لكنها تلجمها رغم ضعفها.

ظهر ذلك اليوم سافرنا كلنا إلى الريف حيث تقطن خالتها، كنا مدعوين لوليمة تقام هناك بمناسبة زفاف أحد أقاربهما، طوال الطريق لم نتكلم إلا عن جمال الطبيعة وحركة القطارات وتاريخ أمها في بلدها القريب من المدينة.

كانت الأم منشرحة وكذلك هي. تتهامسان وتتضاحكان، أو تتكلمان بلهجة لم أكن أقدر على متابعتها أو فهم ما يقال، وعندما أبدي احتجاجي تضربني على أنفي بباطن كفها وتقول:

– أنت تسمع فيروز دائماً بالعربية ولا نحتج عليك.

فأقول موجهاً كلامي للأم:

– سأنقل لك ما تقوله فيروز.

– أنا أحبها – تقول الأم – أسمع صوتها من غرفتك فتحرك فيّ شيئاً غريباً. تصمت وكأنها تبحث عن أمرٍ ما ثم فجأة تلتقطه :

– أجل فيها شيء من ألف ليلة وليلة.

أقول:

– لكنها ليالي أخرى تختلف ، لا شهرزاد فيها ولا شهريار ، فيها أنا وأهلي والناس كلهم الذين يتكلمون العربية.

– ترجم لنا شيئاً. تقول برجاء.

أفكر قليلاً ثم آخذ بدندنة لحن، تسمعاني– فتصيران أقرب إليّ تحاولان إشعاري بأنهما معي في كل ما تملكان من مشاعر تلك اللحظة، تدنوان مني فأبدأ:

– الله معك ياهوانا يا مفارقنا

حكم الهوى يا هوانا وافترقنا.

أحسست بدفقه وجد عظيمة ، اهتززت ؛ حتى أوشكت تصيبني رعشة البكاء.

عندما وصلنا كانت الموائد قد امتدت طويلة تحت أسقف

البيوت العالية ، أو في الساحات المحيطة بها رغم برودة الجو . وقبل أن أبدي دهشتي لذلك، ضحكت وقالت:

– الخمر لن يترك للبرد مكاناً.

وبالفعل أحضرت براميل البيرة وزجاجات النبيذ وبدأ الشواء وابتدأت لعبة الخمر فينا سريعاً . غنينا ورقصنا، وألقينا النكات السافلة التي تليق بمقام ليلة العرس . كان هناك بعض الشباب الصغار يعدون لأمر ما ، كانوا يرسمون خطوطاً ويضعون أهدافاً ، ثم أعلنوا عن قيام مسابقات على الخيل وبالرماية أو المبارزة بالأيدي .

عم الصخب المكان وغابت عنيّ أحياناً. كنت أبحث عنها، فأجدها واقفة مع امرأة أخرى أو رجل عجوز بعيداً أو ضمن صخب شلة من الشباب. تراقبني خلسة حتى إذا ما ابتدأت فقرة الرقص انقسم الرجال والنساء إلى فريقين ثم قامت امرأة تختار شريكها، سارت نحوى، ثم أمامي انحنت تدعوني وقفت أمد لها يدي ثم أخاصرها وأبدأ بالتحرك بمشيئة الموسيقى والخمر وسط الهتاف والتصفيق ، حتى إذا انقضت الموسيقى بقيت ممسكاً بها، لا أريد أن أفارقها إلى أن تدفعني عنها. وتعود إلى حيث تجتمع النساء .

الرجال القدامى، المحاربون القدامى، النساء العجائز، بما فيهن أمها يتشاورون كلما انتهت وصلة رقص، تتجمع رؤوسهم في شبه دائرة يتهامسون، تخرج ضحكة مجلجلة من هناك، يهتز عجوز بحركات يقلد المتسابقين ، يتحرك مثل البطة ، ثم يقوم أكبرهم بكتابة شيء في ورقة مكرمشة ، الكل متحمس للنتيجة والهدية زجاجة خمر كبيرة .

لم أكن معنياً إلا بها رغم هذا الصخب الجميل.

يأتي الليل، ويستمر الاحتفال، تدور الأطباق بالأطعمة مرات عديدة. تُدفع براميل البيرة الفارغة بعيداً يلعب بها الصبية الصغار، ويؤتى بغيرها مملؤة ، تدار الكؤوس بشرابهم الوطني الحاد (**الراكيا**) . تشير عليّ أن اغلق أنفيّ قبل أن أشرب لأن له رائحة نفاذة. وأفعل كما تشير عليّ، استمزج طعمه رغم حدته ، أطلب كأساً أخرى ، أكرعها دفعة واحدة ثم أرجع أسكب كاساً جديدة.

تبدأ الدنيا بالدوران أمامي ، أنزوي بعيداً بزجاجة (**الراكيا**) ذات الرائحة النفاذة أعب منها بنهم .

اتنبه بعد وقت تكون بجانبي تداعب بإصبع يدها شعري الملبد، واقفة، فخذها يتكئ على ذراعي، أرفع رأسي أنظر إليها،

أراها حزينة. تفر من رأسي الخمرة ، أحاول أن اقف تعجز قدماي عن تحمل جسدي ، تمسد على رأسي بحنان عظيم ، أظل جالساً.

أسحب يدها أرفعها إلى فمي ثم أشدها وأضمها إلى صدري.

– لو تعرفين كم أحبك؟

لا تنطق، يظل الصمت مخيماُ على وجهها وأنا أتكلم، أحاول إخراج مشاعري المتأججة ، أحكي عنها وعنيّ، عن الأرض وأمي ، أحكي أشياء لا يربطها رابط، أغيب في ما قرأت طوال عمري، وفي ما رأيت . وتظل هي مصغية راضية مستسلمة، تقاطعني كلما أوشكت أن اصرخ أو أبكي دونما سبب غير رغبة الخمر في ذلك. أحاول الوقوف تسندني ، نمشي . أتكئ عليها .

– شربت كثيراً . تقول.

تحت شجرة عالية نضرة ، تهب علينا نسمات باردة، أستعيد شيئاً من صحوي .

كانت متأهبة للكلام كأنها تقاوم نزعة تردد قوية فيها، ثم تقتنص لحظة وتنطق حروفاً ثقيلة بطيئة:

– أريد منك شيئاً؟

هي تعلم كم أنا مهيّأ لها، أتوسل أن تطلب ما تشاء ، رغم خوفي من تكرار رغبتها تلك، لم يعد عندي القدرة على رفضها، لن أقدر على مقاومتنا معاً ، مقاومتها ومقاومة روحي الهائمة بها لا أعرف كيف؟

حسمت الأمر ، لو أنها أعادت ذلك الآن لا بد سأوافقها، سأطلب من أمها الليلة أن تزوجني ابنتها ، ولن أندم إلى الابد.

ابتعدت قليلاً عنيّ ، رمقتني بقوة . قالت وكأنها تلقي عن روحها ثقلاً عظيماً:

أريدك أن تعطيني طفلاً.

كانت تلقي كلماتها بصيغة الأمر وكأنها قاضٍ يلقي حكماً وقد تخلى عن كل ما يملكه من رحمة وعدل .

ألقت قرارها عليّ كأنه المعجزة، تركتني هائماً بين ما تعنيه بطلبها وبين ما تريد. ما الذي دفعني لمعرفة هذه المرأة، هذا الكائن الخرافي. مأزق بدأت أنغمس فيه شيئاً فشيئاً، وأكاد أسقط فيه إلى النهاية.

سألت وأنا احاول إقناع نفسي بأني لم أفهم ما تعنيه :

– أي طفل؟

كانت الآن قد استراحت، أخرجت كل ما فيها ولم يبق لديها ما تخفيه، همست بحب:

– أريد أن أحمل طفلاً – ثم بخجلها الذي فارقها منذ

الصباح أكملت :

– منك.

للوهلة الأولى هاجت في بدني إثارة رهيبة، كانت كلماتها أمراً عنيفاً أو شبقاً متأججاً ، وكُنت أمامها عجوزا خَرفا ً يستعطي عرافة رؤيا أو خلاصاً.

دهمني عنف غريب. انسل من ملامحي تحفز وانتظار، قد يكون لديها كلمات جديدة ،مسائل أخرى ، تفتح في وجهي نافذة للانطلاق، ماذا أكون أمام هذا الاختبار؟ ماذا تكون الحياة في روحي وأنا لا أعرف غير أسى أمي على رحيلي من عندها ، ماذا سأصنع في دمي الذي سيصبح غريباً أكثر مما هو الآن غريب ؟

فكرت لوهلة أنها غير ما عرفتها ، خفت أن تكون قاسية، تريد اختباري بكل حدة تمتلكها امرأة رغم أنيّ والعشق واضحان لها حتى النهاية، ماذا من العمر أملك لأعطيها ؟

*****

عندما هبت في وجهي، وغرزت أظافرها القاسية في لحمي لم أكن أدري جواباً بعد. ولم أملك برهه للتفكير، ماذا كانت تقول "تلك المرأة في فلسطين" ؟ " **الرجل الكنعاني بطبيعته خجول**" ، وأنا أكثر من كنعانيّ لو أنها طلبت ما أملكه ، دمي لفصدته أمامها كالقرابين. لكنها تريد ما لا أملك، حياتها وحياة طفل لا أعرفه بعد.

فكرت أن اطلب منها مناقشة ذلك بهدوء، لكني أيقنت أنها ستتركني وحدي أتساءل، ستفر، تتركني وحدي أتساءل ماذا فعلت ، خلتني رأيتها تصرخ، تضرب رجليها في الأرض، ترمقني شزراً، لا وقت للحسم أكثر، تمتمت حتى أني لم أكن متيقناً أني نطقت شيئاً :

– ما الفرق ؟

في الحال ردت:

– سأملك منك شيئاً.

صرخت بجنون:

– أنا ؟

ردت بثقة :

– لا أعرف أنت أم ما تمثل .

اقتربت منها ، كانت الخمرة قد فارقتني ، قلت :

– أنا انسان وتافه أيضاً ، لا أملك حق تقرير مصير أي شيء، ولا حتى مصير نفسي .

كانت تراقبني بسلبية غريبة . صرخت :

– لماذا لا أقدر على كتمان مشاعري ، لماذا أحببتك كل هذا الحب ؟

– اسمعي . قلت محاولاً تهدئتها.

ردت بنزق :–

– لن أسمع شيئاً ، كنت قادرة على خداعك وإخفاء كل ما أريد عنك .

هتفت :

– لِمَ لم تفعلي ؟

– لأني أريدك حراً معي .

لا أدري أي ضوء لاح في الأفق آنذاك ، ضوء الصبح أم أن حريقا فاجأ الغابات البعيدة . ضممتها إليّ ، كانت تبكي ، لكنها ركنت إلى صدري باستسلام .

ما يدريك ما يقال ، سيكرهني ابني وسيردد مقولة التاريخ في اسقاطي غربتي عليه ، سيكون هجيناً ، تائهاً،

لن يفهم سرّ التجربة ، سيعاقبك ويمقتني ، سيرتد عن أحلامك وما ترسمين، فلا أبوه استشهد وكان بطلاً ، ولا سجن وسينتظر عودته . سيتحطم كل شيء ، حياتك وحياته ، وسأظل حائراً أمام خطيئتي التي ألقيتها في أعز ما عندي من الدنيا .

أتعلمين كيف نكون نحن الفلسطينيون ، إنّا نتكاثر بلا وعي منا ، كأنه مرسوم لنا ومقدّر أن نتكاثر لكن في أرضنا ، إيماننا أعطانا القدرة على احتمالات الحياة ، الولد عندنا يأتي ويأتي رزقه معه ، لا أرق أمام هذه الحال رغم التشرد والخيام التي احتوتنا فيها، لا مدارس ولكنّا نتعلم، ولا طعام ولكنّا نشبع ولا راحة ولكنّا نحب .

" غولدمائير" كانت تقول كلما سمعت أن طفلاً فلسطينياً ولد : أصابتني رعشة الموت . هي تعرف حقيقة الميلاد فينا ورغم ذلك كنّا نتوالد. في الخليل في مذبحة هناك قتل العشرات على يد الصهاينة ، في تلك الليلة بالذات استقبلت المستشفيات أربعين حالة ولادة ، هذا هو جدل الميلاد فينا .

تركتني أتكلم ومشت ، غابت بعيداً تركتني غريقاً في طفح

الهذيان الذي أفرزته ، كنت أفقدها وأفقد العمر الجميل هناك ، كانت آخر الذكريات وأحلى الذكريات .

كيف لها أن تفهمني وأنا لم أكن قادراً على فهم ما يعترك في داخلي، كم أتمنى أن أعود إليها ، كم أتمنى أن أراها ، أضمها إليّ.....

*****

الفصل الخامس

الوهـم

أيامي كظل مائل وانا مثل العشب يبست
(مزامير)

(١)

فجأة، وبكل بساطة حدث .ذلك.

كما هو معتاد بالتوقيت العربي، ساعات قليلة وسقطت واحدة أخرى، صارت بين ابتداء الليل وساعات الفجر الأولى، دولة محتلة، حدودها لم تعد لها ، بيوتها لم تعد لها ، نشيدها الوطني ، علمها، هوية شعبها، آماله ، أحلامه، ترف العيش، السيارات الفاخرة، الأفلام الخليعة، عادات القهر ، عادات العبادة، كلها لم تعد لها.

هكذا وببساطة خرجت الصحف العربية تنعى وطناً جديداً.

حلماً، كابوساً، حالاً غير اعتيادية لواقع لم يكن أبدا عادياً. سقطت دولة ،

وخرجت الصحف تعلن مواقف خجلى، مترددة ، فالقرار لم يأت بعد . لم تكن سوى حال نقل للأخبار . الإذاعات جميعها ، الإذاعات القريبة كانت تنتظر أمراً ما.

كالعادة كانوا صامتين ، لكن الأمور كانت تعد بسرعة مذهلة لا بد من تحديد الموقف، مضى النهار الأول. في أغسطس تكون الأرض ساخنة والهواء ، تنفس العربي يصبح صعباً فلا أوكسجين في الفضاء يكفي للرئات العريضة، حتى دورة الأدمغة تصبح بطيئة أكثر من المعتاد .

في الليل الثاني أعلنت المواقف ، وجاء الانقسام الحاد مرة أخرى ....

نامت المدينة ليلتها بهدوء، اختفى منها الصخب وحلت عوضاً عنه الإشاعات.

أنت لا تدري كيف تتوالد الإشاعات تنتشر سريعا تدخل كل البيوت والمقاهي والمطاعم ومحلات السوبر ماركت. يحملها ولد صغير أحيانا من دون أن يدرك أحد من أين جاء بها ، تتكاثر ،

ورغم اختلافها وتناقضها إلا أنها تترك في النفوس هزة غريبة، احتمالية الصدق، أبعاد ما يقال وحقيقته ، الدماغ الهادئة في أرض الاستهلاك المترفة ينتفض وراء الأحداث يحللها بسذاجة. **هل سيلحق بنا الدور إلى هنا؟** يكبر السؤال .

صباحاً كانت البنوك تستقبل آلاف الطلبات لتحويل الودائع لأمكنة آمنة، ورغم فراغ المدينة في الصيف إلا من الرجال الذين أرسلوا زوجاتهم لقضاء الإجازات بعيداً عن القيظ، والهنود والنوادي الليلية، المملوءة بالنساء والخمر، إلا أن مكاتب السفر كانت تستقبل زبائن لم تعهدهم من قبل . الآلاف أخذوا أدوارهم بانتظار حجز مقعد لهم على أية وسيلة نقل تأخذهم من هنا .

فجأة أصبحت المدينة شيئاً غريبا ، لم تعد هي الوطن.

هو الوباء انتشر ، أصاب المدينة بلعنة اللا انتماء، لم يعد لها أهل وكان أهلها كل الناس، لم يعد لها أصحاب وكانوا كلهم أصحابها ، لم تعد واحة العمر الجميلة وكانت جنة الأرض . في دواخلهم ماتت العلاقة مع كل شيء فيها، بلا تردد، بلا احتساب لدين في رقابهم لها ...كان السؤال كبيراً :-

مالذي يربطهم بهذا المكان ؟ الأرواح الهائمة المتجمعة من

بقاع الأرض كلها ، الأرواح الملعونة حنت للأراضي الملعونة التي جاءت منها وأضحت تركض خوفاً ، تمارس أنانية العمر .

عندما سأل أحمد الزين "ناصر" عن قراره ،وجده يبتسم ، فاجأته حركة الشفاه تلك وهي التي لم يكن ليراها إلا لماماً حتى في الأوقات العادية.

– ماذا تقصد ؟ .

بعد لحظة طالت قليلاً، اختلطت بدوران العيون في محاجرها، وبحركة يد تناولت علبة السجائر ببطء والولاعة لإشعال طرف السيجارة المستدير الناضج، ثم وبسرعة تملأ بدخانها الفضاء .

– هل تعرف أنه في أيلول عندما كانت الناس تهرع إلى الملاجئ لتختبئ من رصاص الأهل وقذائفهم ، كنا نهرب مثل الآخرين نحو "تسوية" بيت قديم كأنه مغارة ، يحتوى كل سكان الحي باستثناء رجل عجوز واحد هو أبي. كنا نتوسل إليه أن يأتي معنا وكذلك تفعل أمي، ترجوه أن ينزل إلى الملجأ الوحيد الممكن، لكنه لا يستجيب ، لا يناقش الأمر ولا يقبل أن يبرر هذا الإهدار الذي يمارسه لعمر كان عزيزاً علينا جميعاً.

الطريف أيضاً أن بيتنا كان يقع في سهل مكشوف لا يحتمي بأي ساتر يبعده عن القصف ، مشرعاً حتى للطلقات التي لا تصل إلى أهدافها. كان أكثر بيوت الحي انكشافاً وكان أبى – يرحمه الله– يأبى أن يغادره.

هل تعلم كنت أظنه قد مل من الفرار واللجوء . وأحيانا كنت أفكر وأنا مختبئ في ملجأ الحي مع أمي وإخوتي وسكان الحارة، أفكر به أتساءل هل مل من العمر؟.

رغم أني واثق من أنه كان يعشق عمره كثيراً، لا أريد أن أفلسف هذا العشق أيضا لأني أحسب أنه كان يمارس عشقه لعمره من أجلنا.

أذكر أنه في ليلة كانت غريبة ، اشتد القصف، وصرنا نرى الرصاص حقيقة والقذائف تتساقط فوق المواقع بغزارة . الدبابات تزحف نحونا ، ونسمع هدير جنازيرها الصاخب ثم صوت قصف المواقع بعنف ، في تلك الليلة كانت اللعبة قد تحولت وصارت حقيقة . لا أدري بماذا كنت أفكر ، لكني أعرف أن قلبي كاد ينفطر على ذلك العجوز الذي لم يحرك في الطريق القادم من البيت إلى هنا ساكناً . يعلن أنه أخيراً قد جبن مثل الرجال جميعاً . أو أنه عاد لوعيه الذي يحتم عليه أن يبقى حياً

من أجلنا ، وأنه لا بد قادم تحت وهج القذائف يحتمي مثلنا.

كيف حدث وقررت أن أطمئن عليه . إلحاح أمي وإخوتي وأهل الحي المجتمعين في الملجأ لم يردعني، حتى الخوف، تركني وقتها واختفى . حتى اللحظة لم أعرف من أين جاءتني تلك الشجاعة، دفعت الباب وخرجت.

كان هناك دوي هائل ، وكانت المدينة مقفرة إلا من الرصاص والقذائف. تسللت قرب أسوار البيوت العالية أحتمي بها وألتمس لي طريقاً آمناً يأخذني إلى بيتنا.

آه منك أيها العجوز.

لم أدر كم من الوقت مرّ عليّ وأنا على هذه الحال، لكني واثق من أني قفزت أسواراً عالية لم أكن أحسب أني قادر أبداً على تسلقها ، قطعت المسافة التي تفصل بين المخبأ والبيت، وصرت ملاصقاً لسور بيتنا، كل ما يفصلني عن بوابة البيت وعن **هذا الكائن الجميل "أبي"**، استدارة هي بضع خطوات ، بعدها أصعد ثلاث درجات لأصبح في المنزل. لكنها الخطوات البعيدة التي يصعب تحقيقها والدرجات العالية التي تقطع الأنفاس . فبعدها سآتي للعلن، وأصبح وجها لوجه مع الحرب التى لا تميز أهلها. أصدقك القول تلك اللحظة فقط فكرت بهذا الرجل الجالس وحده .

كان مثل جبهة في مواجهة العساكر كلهم ، وكأنه يحمي المدينة من أن تنفجر.

انطلقت في السماء قذيفة ظلت تعلو حتى وصلت أوج ارتفاعها ، ثم وبهدوء صارت تهبط إلى الأرض وهي تفرش تحتها ضوءاً ساطعاً أعاد للحارة كلها النور الذي تفتقده ، رأيت كل شيء ، البيوت الفقيرة، بوابة الدكان الوحيد في الحي، شجيرات الزيتون المنغرسة بإهمال وتبعثُر في الساحة الخلاء ، وآثار النيران تخبو على الطريق العام. رأيت كل شيء للحظات كادت تسلبني ، ثم وبسرعة عادت العتمة من جديد ، صارت أشد، حتى أني لم أعد قادرا على رؤية الأشياء التي كنت أراها من قبل. انتظرت قليلاً حتى عادت لي القدرة على التمييز . دون أن أفكر هرعت ، قطعت الخطوات الباقية ، قفزت الدرجات الثلاث ، صرت أمام الباب دفعتة فانفتح بوجهي ، تلفتّ حولي مسرعاً حتى خلت أن أبى ليس هنا ، لكن بعدما هدأت أنفاسي قليلاً ، سمعت صوتاً خافتاً يأتي كالهمس من الصالة الداخلية للبيت ، حسبت أول الأمر أن أبى قد تنبه لحضوري ، دلفت داخلاً، رأيته . كان قد أنزل فراشه من على السرير مده على الأرض ، ونام عليه بلا غطاء. كان صوت شخيره هادئا .

*****

(٢)

صار الجميع يلاحظ الطباع المختلفة التي بدأت تظهر في عادات "ناصر"، "أحمد الزين" ، "سارة" في رسائله، "داوود وزوجته مها" ، حتى الهنود جميعهم ، فجأة تماوج الصمت وتحول إلى سكينة عجيبة واندحار .بدأ خروجاً عن مألوف الحياة وغرِق في قاع بئر عميقة .

تلاشى هدوؤه الصاخب واختفى من على ملامحه الصامتة الاهتمام ، صارت الأمور عادية أو مهملة أو كأنها لم تكن من الحقيقة في يوم من الأيام .

عندما رأى الهنديين يتصارعان في ثأر حملاه معهما من بلدهما لم يهتم. حتى عندما طعن الصغير منهما صاحبه ذا البدن الضخم بخنجر ذي نصل حاد دقيق غرسه في صدره جهة القلب تماماً ، ودفع بكل قوته حتى ظن أن يده قد اخترقت جدار عظامه وقبل أن ترتد كانت قد غرقت بالدم ، نظر إلى الرجل ، تأمل عينيه والقسوة التى تسكنهما ، ورأى هلع الرجل الضخم وكأنه يقتل من المفاجأة أو الرعب أو عدم اليقين . هاج العمال وأسرعوا نحو الرجلين لكن ذلك كله كان قد انقضى في لحظات.

*****

كان ناصر هو الأقرب، لكنه لم يتحرك عندما سقطت جثة الرجل ، أوشك الدم المتناثر يرشقه لكنه لم يكترث. أقسم العمال في الليل وهم يستعيدون وقائع الحادثة أن المهندس "ناصر الحاج "خطا فوق الجثة ومشى إلى مسكنه، جلس على الدرج وأشعل سيجارة.

لا أحد كان يعرف ما يجول في رأسه حتى هو . شهد صراعاً داخل نفسه بين أن يشتعل ويهرع نحو الرجل الصغير يوقف هجومه ويدفعه بعيداً ، ثم يطلب منهما أن يتحاورا ، وبين أن يصمت كما فعل . كان صراعاً باهتاً لا يحمل أي ألق أو عظمة . أمر تافه صغير صدر من داخله الى داخله، كُفّ عن الفعل، فكف .

كيف لهذا الصغير أن يحمل هذا الكم من الحقد والكراهية ؟ كيف له أن يصبح قوياً وعارفاً حدّ اختراق بدن خصمه بضربة واحدة تكون كافية لسلب الرجل حياته ... هو الثأر، الانتقام ، هذه العدالة الهمجية .بعض الناس **تُخلق لتفعل ما يعجز الآخرون عن فعله .**

لماذا هم ؟ ولماذا يبقون هم حتى النهاية ؟ لتركيبة خاصة جاءت معهم منذ الميلاد ، أم لقانون آخر جاءهم من الخارج يجعلهم مهيئين لذلك ؟

كم أتمنى أن لا أكون منهم !! .

في الطريق السريع إلى دبي ومع انطلاقة الحركة وقت المغيب في المدينة، كانت السيارات المنطلقة كالقذائف تنحو بعيداً محاولة تجنب أمر ما ، لم يكترث حتى نظر نحوه السائق وقال: انظر.

كلب صدمتة إحدى السيارات المسرعة تكوم وسط الطريق بلا حراك ، إلى جانبة وقف كلب آخر يشده من عنقه بأسنانه يحاول أن يبتعد به عن الطريق .لم يبد "ناصر" أي تعليق لكنه لم يقدر أن يهرب من التفكير برهة من الوقت بما رأى ، مالذي يفعله الكلب بصديقه الذي قتل.؟

*****

سألته "مها" أن تأتي عنده، رفض . لم يعتذر، قال لا أريد أن أراك. اتصلت به بالهاتف. كانت واقفة أمام نافذة بيتها تنظر نحوه وتشير بيدها . سألته ألم تشتق إليّ؟. أجاب بلا تردد :– لا –.

حسبتها مزحة، قالت أنا اشتقت إليك، سآتي الآن. قال : لا تفعلي لا أريد أن أراك. ووضع السماعة.

هذه المدينة العظيمة المملوءة حركة وصخباً أصبحت صامتة، حركتها الدائبة وإن استمرت لتبدو للرائي أنها ما تزال . كانت خافتة وكأنها تتحرك بقوة الدفع التي لا بد أن تصل إلى حد التلاشي، نوادي الليل والنساء بجميع جنسياتهن، وصخب الفرق الموسيقية، والاستعراضات المعدة بعقود ملزمة لم تحرك رغم صخبها المدينة.

*****

– هذا هو الصيف !! قال أحمد الزين.

كان قد طرق الباب بقوة ، واثقاً أنه موجود في البيت، لم يستسلم حتى فُتح الباب وبرز من خلفة "ناصر" المحاط برواسب سبات عميق كأنه فيه منذ دهور، لم ينتظر دعوته للدخول. دفع الباب ودخل، لحق به ناصر، لحظة بطيئة انقضت راه يمضي نحو الحمام، حسب أنه يرغب بقضاء حاجة لكنه تنبه عندما اخذ يشرع باب الحمام وينظر إليه ثم يقول بهدوء : ستأخذ حماماً بارداً لأني لن أقدر على إيقاظك.

– لا أريد . قال ناصر المتكاسل .

– ستفعل. قال، وهو يجره من يده إلى داخل الحمام.

*****

لا بأس، غاب ناصر قرابة نصف ساعة كان صوت الماء ينهمر بقوة طوال الوقت، جلس أحمد على أريكة قريبة وأخذ يراقب الطريق. الشوارع شبه فارغة، الشقق مطفأة، أطفال الهنود لا يلعبون بين السيارات ، هدوء خلف الزجاج ، وهدوء أمامه إلا من صوت المكيفات القديمة .

خرج وقد غطى نصفه الأسفل بمنشفة أوشكت أن تلامس الأرض. كانت عضلات صدره بارزة والعروق التي نقشت برقبته كانت شديدة الزرقة . تبسم. جلس قبالة صديقه:

– سنسهر الليلة .قال أحمد .

هز ناصر رأسه بحركة لم تعطِ أي معنى للقبول أو الرفض.

أحس أحمد أن بامكانه أن يعتمد على ذلك في أن يخرج للسهر مع صديقه .

تنقلا بين أكثر من فندق وناد ليلي. كانا يكتفيان باحتساء زجاجة بيرة أو زجاجة ببسي ثم يغادران حتى وصل بهما المطاف إلى فندق بعيد جهة البحر.

كان بار فندق "الخليج" معتماً إلا من أضواء تتراقص وتختفي ، ثم عندما تومض تلقي قدراً من الرؤية على وجوه

ملونة. عشرات النساء، وبعض الرجال . وقفا لبرهة يدربان أعينهما على استيعاب المكان، وعندما اعتاداه، قررا إلى أين سيتجهان. حفنة من النساء حركة الضوء فوقهن تشير إلى وجود مسحة من الجمال .

كان أحمد يعرف أن صديقه لا يرغب كعادته بأكثر من جلسة وحوار، كان يقول إنها تجربة مختلفة ، شيء جديد ، حوار مختلف نصفه يأتي بالإشارة، فلا لغة بينهما سوى لغة الجسد .

*****

(٣)

أعرف أني لو اعتقلت أو قيدت لن أفقد هذا الشيء الذي أطلق عليه لفظ الحرية ، ولا أعود حراً كما يقول أولئك الثوريون الذين يركضون مجهدين لتحقيق أي فوز دون أن يعلموا أنهم يستهلكون في غير عالمهم، ولن يكون الاعتقال إنقاذاً من أزمات اليوم وتعب العمر والعلاقات مع الآخرين الذين هم العذاب . إذا حدث واعتقلت فلن أفقد شيئاً سوى الوهم بأني كنت حراً في وقت ما .

كتب " ناصر " هذه الكلمات وهو الذي توقف منذ زمن عن أن يكتب ، فلا "سارة" هنا ولا وجدانه الطفل الذي عاش معه سنوات عمره هنا . أضحى وحيداً سوى من اندحار يلامس روحاً تهيم على غير هدى ، صخب وتسارع هائل ، ازدحام في الرأس، آلاف الأحداث والاحتمالات ... ونفس تنزع أحيانا نحو مسايرة الوقت ، والفكرة السائدة في هذه البلاد و الفرصة التي أتت إليه في أن يصير غنيا . هي لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر – ترهات – قال ... إن هو أرخى لبدنه فكرة أن لاشيء يهم ، بعد أن تجاوز عمراً طويلا بالفقر والحاجة والعوز واعتادها ،ولم يكن ليخسر أكثر إن بقي كذلك . أو أنه عزم على أمر جديد

غير ما عاش وتعلمّ إن حدث وطرأت على رأسه فجأة فكرة أنه لن يبقى شاباً إلى الأبد ، وأنه لابد أن يعمل شيئا لحياته القادمة، للشيخوخة إذا وصل اليها ، وحتى لحياة أهله وحياة "سارة".

معادلة لم يكن قد عرفها في ذاته أبداً، ولولا حال الاسترخاء التي تفرض عليه الوحدة والعزلة هنا لما فكر فيها أبداً. من دون أن يخطط لذلك أصبح معه مبلغ جيد من النقود مودع في أحد البنوك ، ومن دون أن يخطط صار يرسل لأمه وإخوته راتباً يكفي لمعيشة جيدة ، اشترى لهم منزلاً، دفع لأحد إخوته مبلغاً لكي يعمل مشروعاً يفيد الأسرة ، أرسل أخته إلى الجامعة ، كل شيء كان يمشي بسهولة ويسر .

الراتب الذي يتقاضاه يكفي ويزيد ، والامتيازات التي يحققها تأتي له طواعية من دون أن يسعى نحوها .

المؤسسة ترسل له مكافأة بعد نهاية المشروع ، تقرر أن تحسن له السكن ، تضيف له تذكرة سفر ثانية خلال العام ،،، ينسى كل ما تعلمه عن فائض القيمة ويعتاد هذه الراحة لكن من دون أن يتجاوز حال القلق التي تعتريه .

كان "ناصر" يعرف أن الاكتئاب الذي يعيشه هو رواسب

الزمان الماضي، وأنه لن يتلاشى بسرعة مرة واحدة. برسالة جاءته من الشركة مع سائق سيارة الفورويل صار مديراً لمشروع ،،، احتفى بالمناسبة كما يجب ، دعا عدداً من الأصدقاء وحفنة من النساء وقضوها ليلة حتى الصباح ،،، . رغم أنه كان يسكن شقة في عمارة تتكون من أربع وستين شقة ، تحوي عشرات الجنسيات والهويات والألوان ، وتحوي لغات وأدياناً شتى ، إلا أنه كان وحيداً لا ينظر إليه أحد ، ولا يشتكي منه أحد . مثلما كان هو لا ينظر إلى الآخرين ، حتى عندما انتظر المصعد طويلا في إحدى المرات وجاءه أخيراً ليرى عند فتح الباب رجلا منهمكاً بجسد امرأة أوروبية في زاوية المصعد . لم ينظرا إليه ولم يسمعاه يهمس .

Sorry -

لماذا يتملكه الشوق دائما إلى الوطن ؟ لماذا يحن الغريب إلى وطنه رغم قسوته وفاقته وجوعه ؟ أهو وجدان الشرقي المتضخم بعاطفة لا تحمل أي مبرر عقلاني ؟ سأل أحمد الذي احتار في الإجابة .

أجابه وهو يضحك :– وطني حيث أكون حراً .

رد عليه :– وكيف تكون حراً في وطن لا تملك فيه ثمن طعامك ؟ ثم تابع ، أو كيف يمكن أن تكون فرحاً في أرض فيها

العالم كله مثل دبي، وأنت لا تملك ما يمكنك من دخول أحد فنادقها التي تبهرك بأضوائها .

أحسب أن راحتنا في الصمت وفي الكف عن التفكير .

*****

(٤)

الصبي الصغير الذي كان واقفا في أقصى الممر بين أبواب الشقق ، الذي أبصره " ناصر" حالما غادر المنزل ، احتل زاوية وبقى يحملق باتجاهه . خمن أنه ساكن جديد، فهو وإن لم يكن يعرف كل من يسكنون العمارة معه إلا أنه كان يميزهم عندما يخرجون صباحاً إلى المدارس أو العمل وعندما يعودون في الظهيرة ، وحتى أولئك الذين لا يعملون شيئا غير مرافقة زوجاتهم اللواتي يعملن . كان يراهم إن هو تأخر في النوم لساعة الضحى، أو تغيب عن العمل فقد كانوا يخرجون ويدخلون بحركة دؤوبة سواء لشراء غرض ما من البقاليات المجاورة أو لإرسال ملابسهم إلى المغاسل أو لسؤال حارس البناية أمراً ما .

حزم أن هذا الصبي غريب ، وأنه يدخل البناية للمرة الاولى. لم يكن قادراً على تمييز جنسيته فهو لا يقدر على تحديد ملامحه بدقة وقد أخفاه ظل الزاوية التي وقف فيها . حسب أنه " هندي" وهذا هو الاحتمال الأكثر شيوعاً . فكر فيه وبوقفته تلك طويلاً لأن المصعد تأخر بالوصول كالعادة في الصباح لانشغاله بحركة الساكنين جميعهم، الأمر الذي دفعه لأن يرفع

رأسه أكثر من مرة وفي كل مرة يجد أن الصبي ساكن يحملق فيه من دون أن تبدر عنه أية حركة .

عندما عاد "ناصر" ذلك اليوم قبل المغيب كانت سماء المدينة قد امتلأت بسحاب أسود، وكانت الريح تطرق بأقدامها الأرض وكأنها تنذر بقدوم عاصفة . لفت انتباهه عندما غادر المصعد أن ألصبي ما يزال واقفا في ممر البناية ، غيّر مكانه نحو الغرب ، أخذ زاوية مقابلة للزاوية التي كان قد احتلها في الصباح ، استطاع أن يتأمله قليلاً وقد فوجئ به ، كان يرتدي بنطالاً يضرب بلونه إلى البني ، فضفاضاً يحيط بجسد نحيل وفوقه قميص أصفر واسع فتحت أزراره العليا فبرزت عضلات صدر صغير أسمر ، ارتدى حذاء رياضياً من تلك الأحذية التي شاع استخدامها في السبعينات . كان وجهه أسمر مستديراً ، شعره أسود ناعماً وغزيراً .

تبسم " ناصر" له . لم يبد الصبي حراكاً وإن كانت ملامح وجهه تشي بشيء من الارتياح أو كأنها تحمل خلف صمتها ابتسامة . تركه وهو يتساءل :

– ترى هل بقي واقفا طوال اليوم هنا ؟

تألم عندما فكّر بأن الولد معاقب من أهله فحكموا عليه أن

يبقى خارج البيت طوال اليوم .

في الليل زاره أحمد وآخرون كعادتهم ليلة الجمعة منذ أن امتلأت الفنادق بقوات ألمارينز، حيث لم يعد يلقى الشباب هناك ما كانوا يلقونه من اهتمام في الماضي من الهنود الذين يخدمون في هذه البارات ، أو من النساء .

لقد تغير كل شيء الاستقبال الحار صار فاتراً أو حتى بارداً ، والنساء صرن يبتعدن عنهم حتى لو لم يصل بعد الرجال حليقو الرؤوس .

أبصره عندما فتح الباب لاستقبالهم وقد أدار وجهه نحو الحائط بعدما ابتعد قليلاً عن الزاوية التي احتلها سابقاً ، كان ظهره المنساب بهدوء يوحي بعمره الصغير ، لم يلفت حضوره انتباه زوار "ناصر" وحتى أن "ناصر" عندما حاول أن يتحدث لهم عن هذا الصبي الواقف طوال اليوم في الردهة لم يجد في الموضوع ما يستحق الذكر ، ولم يجد المدخل لذلك ، لكنه تذكره في ساعة متأخرة وزواره ما يزالون يكرعون البيرة ويشاهدون فيلم فيديو . تركهم وتوجه نحو الباب ومن العين السحرية نظر ، في البدء لم يتبين شيئا رغم أن الممر مضاء لكن عندما دقق النظر بعينه وجد أن الصبي واقف قريباً من باب شقته ، وهو

ينظر نحو الباب باتجاهه وكأنه قادر على رؤيته من ورائه .

عندها فقط أحس بشيء من الغرابة ، رجع ساهماً ، وجلس من دون أن ينطق بكلمة ، اكتملت السهرة ، قام الأصدقاء ، فتحوا الباب وخرجوا جميعهم من دون أن يلفت نظر أحدهم صمت "ناصر" العميق . عندما أغلق الباب خلفهم أبصر من خلال الشق المفتوح بين الحائط والباب الصبي ينظر ، قرر أن يخرج ويسأله عن أمره لكنه عدل عن ذلك عندما تذكر أن في هذا البلد كل إنسان حر بما يفعله ما دامت حريته لا تسيء للآخرين .

فكر أن هذا الصبي يحمل شيئاً كبيراً من الطيبة ، ولا يمكن أن يكون من أولئك الصبية المشردين أو الذين تقذفهم السجون ، وهو يعرف أن "دبي" لا تعرف هذا الصنف من البشر . فالأولاد هنا كلهم يعيشون مع أهلهم الذين يملكون فرصاً جيدة للعيش والتعلم ، لذا لم يساوره أي شيء من القلق سوى ذاك الذي يحمله الفضول .

عاد إلى غرفته ، ارتدى منامته ، غسل يديه ووجهه ، استلقى على السرير وخلال لحظات كان قد غفا .

في أثناء تقلبه في الفراش أحس أمراً غير اعتيادي ، في

شقته هذه لا يأتي صوت المكيف الخشن مثلما كان في الماضي، فالمكيف المركزي لا يخرج صوتاً يمكن أن يختلط مع أصوات القطط التي تهيم بين أدوار الطوابق المشرعة أبوابها ، أو السكارى العائدين آخر الليل من حانات الفنادق الرخيصة ، أو السكان الفلبينيين وهم يتبادلون ورديات النوم حيث يشترك عدد كبير منهم في شقة واحدة يتقاسمونها حسب ساعات عملهم ، لذا يكون عمل عدد منهم في الليل فيأتون إلى الشقة في النهار للمبيت، أما أولئك الذين يعملون في النهار ، فيسكنون البيت في الليل ، ... لا بد أن تكون كذلك وإلا لما استطاعوا أن يدفعوا إيجار شقة تلمهم برواتبهم القليلة، سيما وأن المدينة لم يعد فيها ما يسمى في العالم كله بالأحياء الشعبية ، فالأرض صغيرة، ومع هجمة الحضارة هذه لن يبقى شيء شعبي ، لذا ستسقط الكلمة من الاستخدام بعد قليل .

سعر القدم المربع، وهو مقياس البيع للأرض هنا، يرتفع كل يوم، يتوجه نظام العمارة في المدينة إلى العامودي، لم يعد من مكان رخيص يسكنه الناس .

في الشقة الجديدة هذه ، الهدوء يأتي بكل شيء ، الأبواب المغلقة بنظام إنتركوم ، القطط لا تجد ما تقتات به أمام هجمة

النظافة والنظام المعمول بهما ، ولا يوجد ساكن من الفلبينيين . كلهم هنا مهندسون ، أطباء، رجال أعمال، محاسبون حتى وإن كانوا من الهنود .

تململ ، سمع صوتاً، رفع عن جسده الغطاء أصاخ السمع لم يصل إلى أذنه أي صوت ، نزل عن السرير ، أشعل الضوء وخرج إلى الحمام قضى حاجة ، ثم عاد إلى المغسلة .. غسل يديه و رفع وجهه النائم نحو المرآة ، وفجأة وكأنها الصاعقة أصابته عندما رأى وجه الصبي واقفاً خلف ظهره ينظر اليه . أدار وجهه بسرعة كان قد اختفى .... تمتم ببسملة أو دعاء ما ، أحس دواراً خفيفا ، تذكر الصبي أسرع صوب الباب الخارجي ، رفع بإصبعه قطعة الحديد الصغيرة التي تخفي العين السحرية كانت دقات قلبه تتسارع بقوة ، النوم فرّ من عينيه، التخمينات شتى ، حنا عنقه، فتح عينه إلى أقصى مدى لها ، نظر كان الممر فارغاً إلا من الضوء ، ظن أنه قد لاح له ظل أو طرف بنطال بني من الزاوية القصوى التي يمكن أن يرى من خلالها ، فكر أن يفتح الباب فالظل صار قريباً من شقته لكنه رفض أن يفعل ... جال بعينه عن الوضوح لكنه لم يجد شيئا ، تملكه قلق مبهم، رفع رأسه، أنزل غطاء الحديد الصغير عن العين السحرية ، ارتد إلى الوراء، سحب جسده وعاد إلى السرير . أبقى ضوء الغرفة مضاء ، اندس تحت الغطاء ونام .

عندما استيقظ في الصباح كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، قام متثاقلاً ، توجه إلى الحمام أخذ حماماً بارداً أنعشه ثم خرج إلى المطبخ مرتدياً روب الحمام، صنع فنجان قهوة ، حمله وخرج به إلى الصالة، جلس على أريكة قبالة التلفزيون أداره بالريموت كونترول وأخذ يقلب المحطات . جميعها كانت تتحدث عن الحشود الأمريكية والعربية في المنطقة وعن موقف" صدام " الصامد في وجه الحشود بأنه لن ينسحب. لم يكن معنياً كثيراً في متابعة ذلك .

كانت أمريكا تعدّ وكان سكان البلاد يعدون . احتاطوا بتخزين المواد التموينية حتى أن "ناصر" لاحظ و للمرة الاولى أن رفوف محلات السوبر ماركت التي كانت مكتظة دائماً قد صارت تفرغ، الأخبار التي تنتقل تحكي عن احتلال الموانئ في دول المنطقة من قبل الأساطيل الحربية وأنه لا يسمح للسفن التجارية بالرسو فيها .

حالة طوارئ أعلنت من دون إعلان ... والعالم ينتظر بخوف، الناس صارت تفكر وتدرس فيما بينها وسائل تجنب

القنابل الكيماوية التي سيستخدمها "صدام"، وعن آبار البترول التي ستحترق ، فجأة امتلأت الأسواق (ببوابير الكاز) التي سقطت من الاستعمال منذ أكثر من ثلاثة عقود . كل بيت احتاط بواحد من النحاس اللامع الذي يحمل اسم الماركة العالمية "بريموس" وللمرة الأولى ازداد الطلب على مادة الكاز التي لم تكن تستخدم إطلاقاً هنا .

كل ذلك لم يكن يعنيه في شيء ، حتى اتصال أمه القلق من "عمان" أسكته بكلامه عن الشوق والسؤال عن أخبار الأهل والناس والبلد . اتصل به "سلطان " بالتلفون أخبره أنه متوجه و"مها" إلى "ابو ظبي" حيث سيعرض على الناس إحدى حاملات الطائرات الامريكية وأنه سيحق للزوار دخول البارجة ومشاهدة تفاصيل حياة رجال المارينز عليها ، وكيف يحتملون غياب ألاشهر عن أسرهم وبيوتهم لنشر الحرية والديموقراطية في العالم .

تناولت مها الهاتف من "سلطان " هذا ما شعر به ، جاءه صوتها من الجانب الاخر

– اشتقنالك . لماذا لا ترافقنا ؟

اجاب :

– لا احب المارينز .

ردت بسرعة :

– For business not for fun .

– أي شغل هذا الذي يكون معهم ؟

– اشياء كثيرة تطعم ذهباً .

– لا احب الذهب ، رد متأففاً .

– ناصر . همست وكأنها تخشى ان يسمعها " سلطان " إشتقت لك ، واريدك ان تطلع على وجه الدنيا ، هذه فرصه لا تأتي الا مرة واحدة في العمر .

– مها . أرجوك .

قال . وصمت .

شعر انها انسحبت ، لم تودعه ، انتظر قليلاً ، جاءه صوت "سلطان" يطلب منه أن يرافقهما لكنه رفض ثانية ، أعاد سماعة الهاتف ، عندها سمع طرقاً على الباب ، كان قد أنهى فنجان القهوة وأطفأ السيجارة في المنفضة الكريستال التي تلقاها هدية عند شراء ثلاثة كروزات من السجائر ، كان ما يزال يرتدي روب الحمام، لم يجد حرجاً في أن يفتح الباب فكل زائريه من الأصدقاء ولا يطرق بابه غيرهم .

فتح الباب، كان الصبي واقفا أمامه صامتاً مترقباً تتحرك

نواجذه ببطء أحيانا كأنها تحمل علامة الابتسامة ، اهتز "ناصر " عندما أبصره هناك، كان كمن شاهد روحاً، تلعثم وحار ماذا يفعل. لكن أمام الصبي الحقيقي أبعد ما يدور في ذهنه من انفعالات ورؤىً غامضة ودهشة . بادر بأن ابتسم مرحباً بالضيف الغريب ، لم يدر كم مضى من الوقت قبل أن يقول بحماس :

– أهلاً .

كانت كلمة الترحيب هذه تحمل سؤالاً كبيراً فيها ، ماذا تريد ؟ من أنت ؟ هل أعرفك ؟ رغم أنه لم يجد غير أن يبتسم ويفتح متسعاً لضيف لم ينتظر دعوة للدخول .

انسل الصبي بسهولة من الفراغ الذي تركته وقفة " ناصر " بين الباب وجسده . استمر ماشياً إلى صالة الجلوس ،لم يبحث في الأشياء حوله ، كان كأنه يعرف كل زاوية في البيت حتى أنه لم يدقق النظر في اللوحات التي علقت على الحائط ، صور لوحات عالمية لفان كوخ ، غوغان وكذلك صورة "سارة" التي احتلت واجهة الصالة داخل إطار من الفضة الأصلية المعتقة . في لحظات عبوره تلك أوشك "ناصر" أن يحسم أمره بأنه يعرف هذا الصبي جيداً ، كما بدا له أن الصبي يعرفه أيضاً، لحق به وأبقى الباب مشرعاً .

– هل أعرفك ؟ سأل من دون أن تفارق وجهه ابتسامته الحائرة .

لم يعلق الصبي ، بل عاد مسرعاً ، أغلق الباب ورجع من جديد إلى الصالة . عندها فقط تغيرت ملامح وجه " ناصر " وبدا يغزوه قلق مبهم .

– ماذا وراءك ؟ سأل . ثم تابع بلهفة :–

– هل تعرفني ؟

– لا تقلق سانصرف بعد قليل . قال الصبي محاولاً تجنب السؤال .

أكمل وابتسامته تنطلق من بين شفتيه تلقائية مرحة :–

– إنه الاشتياق .

تفكر " ناصر " أي اشتياق هذا الذي يحكي عنه ، كيف يكون لمن لا نعرفهم ؟

سأل مندهشاً – اشتياق لمن ؟

– لك – رد الصبي – أو أن تكون أنت من اشتاق إليّ !!

– كيف وأنا لا أعرفك ؟ – ثم كمن استدرك – لم أرك في حياتي إلا أمس ؟

ضحك الصغير ، برزت أنياب ناعمة من شدقيه ، كان حلوا ، ناعما رائقا كأنه الحلم .

– عندك ما أشربه ؟ سأل الصغير .

– بيبسي أم بيرة ؟ قال ناصر متهكماً .

– لا لا ... أكتفي بالماء ؟

توجه ناصر نحو المطبخ وبسرعة عاد يحمل زجاجة ماء صغيرة، قدمها للصبي الذي تلقفها بيد بدت له نظيفة، ناعمة، أحسها شيئاً قريباً منه، تحمل له راحة غريبة لا يجد لها مصدراً.

قرر أنه سينتظر ما سيأتي به هذا الصبي .

بعدما وضع زجاجة الماء على فمه لحظة قصيرة وكأنه يبلل شفتيه ، أعادها إلى الأسفل من دون أن ينزل عينيه عن إحدى اللوحات المعلقة على الجدار ، قال وهو يرفع الزجاجة بيده مؤشرا نحو اللوحة .

– فان كوخ ، ثم اكمل، Stary night ؟

هز " ناصر " رأسه موافقاً .

– ألست صغيراً على معرفة ذلك ؟

لم يجب بل أدار رأسه نحو صورة " سارة " المبتسمة وسأل :

– كيف هي الآن ؟

– من ؟ سأل " ناصر " متعجباً .

– سارة .

– تعرف " سارة " ؟

– عرفتها متأخراً. قال الصبي. أعتقد أنها تحبك وتنتظرك.

اقترب " ناصر " وكان ما زال حتى تلك اللحظة واقفاً أمام ضيفه الذي اختار مقعده الأثير وجلس عليه ، حدق به بقوة وسأل :

– كيف عرفت "سارة" ؟

– منك . رد الصبي ببساطة .

– من أنت ؟ ثم كمن بدأ يفقد صبره – ستكون واضحاً أو تنسحب . بعدما أدار ظهره قال بصوت متردد وهو يرغب بأن لا يقطع الحوار :–

– لا أريد أن أعرف عنك شيئاً ما دمت غامضاً إلى هذا الحد أيها الصغير !

– أنا ؟ صرخ الصبي .

– هل تعلم . قال " ناصر " وقد بدا يشعر أن الحوار سيمتد، كنت أحسبك من الجيران الهنود .

– ها ها ها .

ضحك الصبي بصوت مرتفع . خانك لون بشرتي ؟
– ماذا كنت تفعل في الخارج بالأمس ؟
– أنتظر لحظة تصير فيها وحدك .
رد الصبي بسرعة .
– وها أنا وحدي .
– جميل ، أشعر أنك بخير أكثر مما كنت عليه في الماضي .
– طبعاً .
فكر " ناصر " أن يسأله كيف عرفت ماضيّ أيضاً ، لكنه صار متيقناً من أنه لن يسمع جواباً شافياً، وأن هذا الصغير سيظل يماطله حتى يأخذه إلى نهاية هو يريدها .

رغم هذا اليقين الا أنه بدأ يستمتع بهذا الحوار وهذه الأفكار التي تتلاحق أمامه كلما بدر عن الصبي حركة أو إيماءة أو كلمة تحمل معها إشارة بأنه يعرفه جيداً ، حتى أنه لم يعد مضطراً لأن يجهد ذهنه بالبحث عن المكان الذي جاء منه هذا الصبي . ولم يفكر بالزمان الذي يمكن أن يكون قد عرف به هذا الصغير ، لَفَته أن هندامه الأنيق لا يشبه ما يلبسه الأولاد هذه الأيام ، بنطاله الأقرب لونه إلى البني كان كأنه من الجوخ الإنجليزي الأصلي ، كما أنه لم يرتد تي شيرت أو بلوزة تحمل رسومات وخطوطاً وكلمات إنجليزية ، بل كان يرتدي قميصا يضرب إلى

الصفرة ، فضفاضا ، ارتفعت جوانبه عند خصر البنطلون فبدا جسده ممتلئاً قليلاً ، في جيب القميص كانت هناك أوراق أو صور تبدو من اندفاعة الجيب . فكر أن يقدم له شيئاً يبقيه وقتاً أطول، وقد شعر قرباً عجيباً من هذا الكائن الجميل .

– جائع ؟ سأل (ناصر) .

– لا ، لكن لا بأس بقطعة حلوى إن وجدت .

عاد ثانية إلى المطبخ وبعد لحظات رجع وهو يحمل طبقا عليه قطعة شوكولا وكعك قدمه له.

تناوله الصبي وأخذ يتذوق ما فيه بمتعة .

– تبدو جائعاً .

– لا ، لكنه لذيذ لم أقدر على مقاومته .

– آتيك بالمزيد؟ سأل وهو يراه يلتهم ما في الطبق بسرعة.

أعاد الصبي الصحن فارغاً .

– لا ، لقد اكتفيت .

قال وهو ينفض يديه ثم وقف ومشى مبتعداً عن المقعد نحو خزانة صغيرة وضع عليها عدد من الكتب ، عندها فقط وبحركة سريعة جلس " ناصر" على مقعده الأثير ، كان كأنه يقول في داخله ليختر مكاناً آخر له .

– مكانك المفضّل .

قال الصبي وهو ينظر إلى رف الكتب . أكمل .

– هل تذكرني ؟

– لا .

أجاب " ناصر " باستغراب .

بالكاد أذكر أني رأيتك، كما أنك أصغر من أن أكون أعرفك.

– لا بأس . قال وهو يتناول كتاباً قديماً .

اللآلئ ؟؟ نسخة جديدة ، ليست تلك التي تعني صديقك " الزين " .

– ماذا ؟ صرخ " ناصر " بجنون ثم تابع كلماته بصخب:

– ماذا تقول ؟ هيه ، من أنت ؟ روح أم شيطان ؟ في البدء دعني ألمسك .

قال وهو يقف مسرعاً . اقترب منه ، لمسه بكلتا يديه ، تحسس ملمس القميص الناعم ، لامس إبهامه الأزرار الكبيرة البيضاء من جديد ، كانت فيه تلك الرائحة التي يعرفها بالذاكرة فقط ، الرائحة ذاتها التي سكنت فيه سنين طويلة مذ كان طفلاً ، يعرفها تماماً لكنه لم يكن يجدها في أية رائحة يشمها أو يعرفها في الأشياء أو الكائنات ، بالتاكيد تلك الرائحة كانت وكأنها آتية من عمق العمر، بيت الطفولة ، حضن أمه ، أنفاس أبيه العابقة

بالتعب ، سجادة البيت ، الأرض مع أول رشة مطر ...

لا يدري ما هي؟ لكنها تلك الرائحة التي تعيش داخله مثل دمه ...

– اذن أنت كائن حي ؟

اتسعت ضحكة الصغير ، رجع يحمل اللآلئ يقلب الصفحات وكأنه يبحر إلى عالم بعيد . كان "ناصر" ينظر نحوه ويراه يدخل في الكتاب ، ينساب بين الصفحات ، رآه يغيب من أمامه .

سيعودون إلى الحياة بمشيئة بعل
وعلى المناضد يجب أن يكون الخبز
....
....
قرأ :
إن يد الإله الملك ستقودك

وحب الأمير الإله يوقظك
.....
.....
فيا أيها الإله الملك ، يكفيه شكوى وليُبعث من جديد ،

أصابه دوار حاد ، شعر " ناصر " أن المكان ما عاد متوازناً وأنه يموج بحركات لم يقدر على ضبط إيقاعها معه . كانت حركة غريبة ، مسرعة أحيانا وبطيئة في أخرى . تقف الأرض كأنها الأرجوحة في عالم الطفولة يكاد يوقن المرء بأنه يتركها جزءاً من الوقت واقفة في الهواء ، ثم ها هي تنحدر كالبرق لتقف ثانية في الوجهة الأخرى .

لم يعد قادراً على التمييز ، الصبي الصغير لم يعد موجوداً.. اختفى، كما الألوان والأضواء وباقي الأشياء .

وارتطم بالأرض .

لم يدر كم انقضى من الوقت عندما صحا من إغماءته ، كان ما يزال بمنامته وبقايا دوار يعصف في رأسه .

عندما اتكأ على كرسيه ليساعده على الوقوف، حاول أن يبعد عن نفسه أية حالة تذكر تأتيه من الرؤيا التي حسب أنه عاشها في منامه . لكنه عندما رأى الطبق الفارغ ونسخة كتاب اللآلئ ما تزال مفتوحة على صفحة فيه عاد له الدوار من جديد.

استجمع باقي طاقته وسار يبحث في أرجاء الشقة ، لكن

بلا جدوى ، رجع إلى الصالة خائباً .

– لا أحد .

توجه نحو الباب ، فتحه.

لا أحد إلا هو في المكان .

عاد واستلقى على مقعد طويل ، كانت دقات قلبه مسرعة يسمعها ويحصيها دقة دقة .

غفا طويلاً من جديد ، وعندما استيقظ حاول أن ينسى ما تراءى له .

خرج من المنزل بعدما ارتدى ملابسه ، كان يهيم وحيداً في شوارع " دبي " التي ما رآها فارغة إلا هذه المرة . لم يكن يدري هل غادرها الناس بسبب أخبار الحرب القريبة ، أم بسبب العواصف العاتية التي ضربتها فجأة الليلة الماضية ؟ كانت الرياح قوية لكنها تتكسر أمام صمود البنايات العالية . أشجار النخيل المرصوفة على الطرقات كانت تنحني بقوة أمام ضربات الريح التي توشك أن تقتلعها من جذورها .

موج البحر كان يصعد إلى السماء بعدما يتكسر على الجدار الإسمنتي الممتد على طول الشاطئ، ثم يحط على الشارع البعيد كأنه المطر .

وحيداً لم يلتقه أحد يعرفه ، كان كأنه ما يزال يمشي في طريق آخر من غير الأرض بعيداً عن كائنات الكون جميعها .

توجه إلى **فندق الخليج** وسط السوق الشعبية القديمة في "**ديره**" . الوقت ما زال مبكراً، لم يضج الفندق بالصخب والنساء كعادته . لكنه وجد من يقدم له زجاجة بيرة باردة ويلقي أمامه صحن الفستق ، وامرأة صغيرة جاءت مبكرة . رمقته .

أشار لها بيده ، نهضت مسرعة صوبه .
همس بإذنها كلمات مبهمة رغم أن لا أحد بجانبه .
أجابته بحركة من يدها . كرع ما في زجاجة البيرة ، سحبها من يدها وخرجا .

عاد إلى شقته من جديد، لم يكن معنياً بأحد وهو يفتح لها باب المصعد ويدعوها للدخول . دخلا الشقة ، طلب منها أن تستحم .

لحظة أن وصل الذروة لم يكن يدري أي دفق هذا الذي كان يخرج منه ممتزجا بصراخه الذي تحاول المرأة الصغيرة أن تلجمه بيدها ، حسبت تلك المرأة المومس وقتها أن المدينة كلها قد سمعته.

*****

مع بزوغ الفجر من وراء الصحراء باتجاه المدينة والبحر ، والشوارع المستيقظة ما تزال رغم النعاس الذي أصابها ليلة أمس ، كان هناك القليل من السيارات والقليل من أبواب المحلات المفتوحة ، وشاحنات كبيرة تحمل بقايا العمال الهنود إلى ورش البناء العملاقة خارج حدود البلد .

كان "ناصر الحاج" عائداً من ليلته الغريبة إلى صحوة العمل . قطع الطريق من أمام "**برجمان**"(*)، انعطف يساراً ، ثم أصبح أمام **استدارة الصقر**(*)، توجه بسيارته نحو اليمين ، أمتار قليلة وانشق الشارع، يمينا يعود إلى **بر دبي**، ويساراً يهبط نحو نفق" **الشندغة** "(*) العابر من تحت ألبحر .اندفع يساراً ، فاجأه صخب توربينات الهواء المعلقة على السقف تشبه الكبسولات الضخمة ، كانت تدور بقوة محاولةً إبقاء الحياة مستمرة داخل النفق الذي يربط المدينة بشقيها تحت خورها الرائق الجميل .

هناك فوق الخور وفوق رأسه يتزاحم الناس في المراكب الصغيرة . في الصباح يعبرون بين طرفي المدينة بهذه المراكب، يجلسون مسندين ظهورهم لبعضهم البعض وأمامهم جميعاً البحر.

(*) موقع في دبي.

عبرا عبرا .

أصوات تنادي .

ربع ريال لتصل بين عالمي المدينة العجيبة التي تركض متجاوزة الحضارة. هم فوق و"ناصر الحاج " في سيارته ينطلق داخلاً النفق مسرعاً إلى ديره ، يبدأ بالصعود يلوح أمامه فندق حياة يرى الجاليريا أول مكان سكنه على هذه الارض. ما أن يوشك على الخروج من النفق حتى تبرز أمامه نخلة سقطت إلى الارض كأنها جثة عملاقة ، بدا له أنها قد كسرت بقوة العواصف التي دهمت الأرض البارحة، والعمال يكافحون لإبعادها عن الطريق. عندما انفتح النفق أمام وجهه كاملاً، كانت المدينة وكأنها تسمو إلى السماء . من دون ان يعي، كان يتجه نحوها بقوة .

انتهى ...

عمان

عيد الميلاد المجيد

للعام ٢٠٠٤

صدر لقاسم توفيق

آن لنا ان نفرح قصص

عمان ١٩٧٧ .

مقدمات لزمن الحرب قصص

المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ١٩٨٠ .

سلاماً يا عمان أيتها النجمة قصص

دار الكلمة / بيروت ١٩٨٢ .

طبعة عمان، دار الشروق / عمان ١٩٨٣ .

ماري روز تعبر مدينة الشمس رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت ١٩٨٥.

أرض أكثر جمالاً رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت ١٩٨٧.

العاشق قصص

دار الكرمل / عمان ١٩٨٧.

عمان ورد أخير رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت ١٩٩٢.

ورقة التوت رواية

دار المحروسة / القاهرة ٢٠٠٠ .

قاسـم توفيـق

مواليد ١٩٥٤ .

درس الأدب في الجامعة الأردنية، عضو رابطة الكتاب الاردنيين منذ عام ١٩٧٦، شارك في العديد من الملتقيات والمهرجانات الثقافية . عمل مصرفيا في دبي منذ العام ١٩٩٠ وحتى ١٩٩٦ وما يزال يعمل في القطاع المصرفي دُّرس نتاجه في عدد من الكتب والدراسات والرسائل الجامعية، يعيش اليوم في عمان/ الاردن .